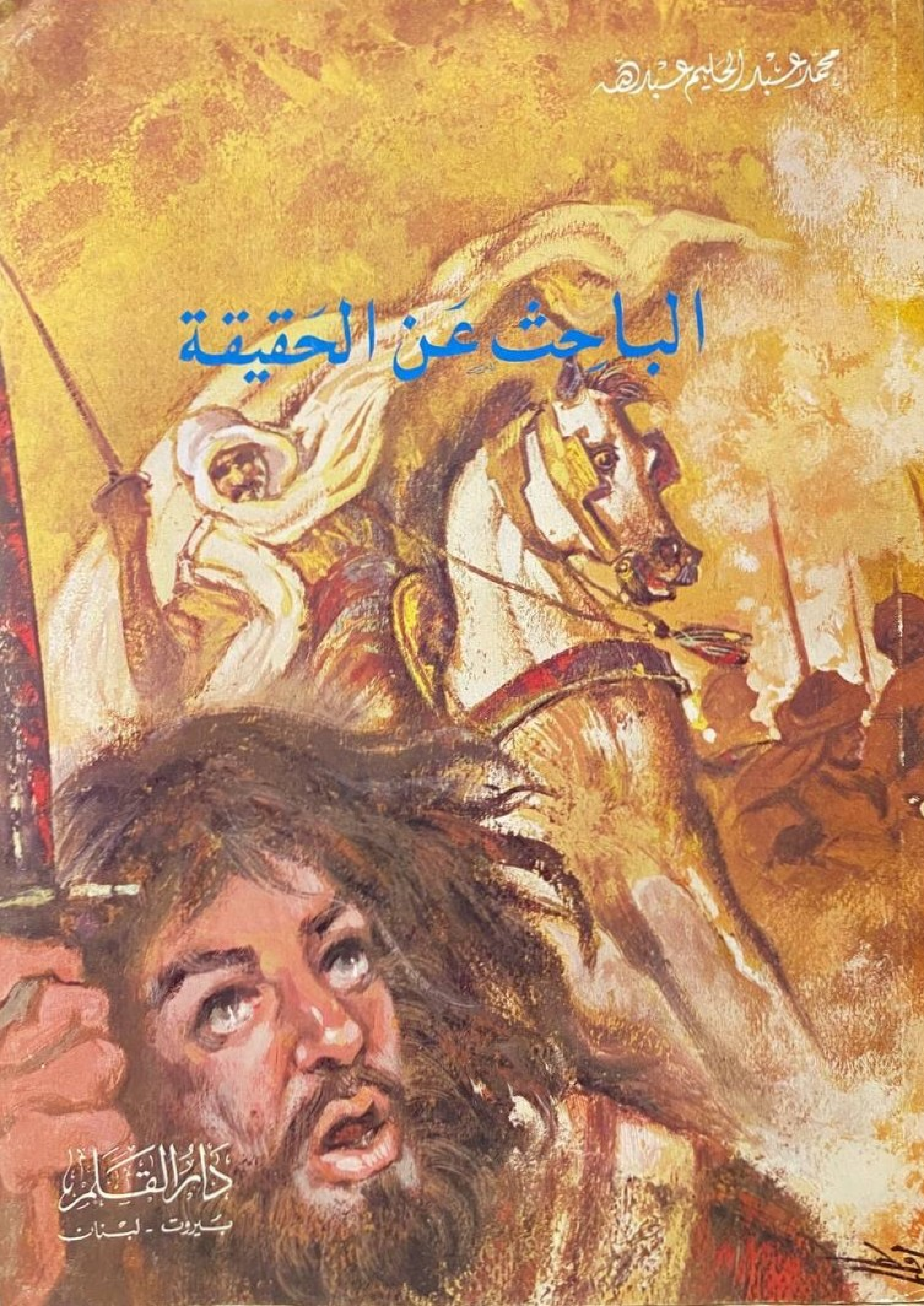

محمد عبد الحليم عبد الله
الباحث عن الحقيقة
دار القلم
بيروت - لبنان

محمد عبد الحليم عبد الله

الباحث عن الحقيقة



الطبعة الاولى
١٩٨٠

الباحث عن الحقيقة

« ان لم تكن احــدى حسنــاتي
فاغفر بها احدى سيئاتي يا ربي »

المؤلف



- ١ -

رائحة بخور نادرة تملأ أنفه ، وهمهمات من أدعية مهموسة تملأ أذنيه ، لكن قلبه الليلة يملؤه الشك .

شاب باهر العود صحيح الجسم دائم التأمل ، له حواجب غزيرة مقرونة توحي بالقوة ، وبين الحاجبين تقطيبة تشكو في صمت ، شكوى النفس للنفس ، حركة الشك التي تبحث عن اليقين في تحسس ودبيب ، وبين كل فكرة وفكرة تتنهد .

والمساء ينزل على قرية « جي » القريبة من « أصفهان » بامبراطورية « فارس » ، يحمل رائحة عيد « النوروز » الذي فرغوا من الاحتفال به . وأخذ دهاقين [1] القرى وحكامها أيامها يجهدون الناس في جمع أثمان الهدايا الاجبارية التي تقدم لكسرى ، فرقدت

---

(١) جمع دهقان وهو حاكم القرية أو مالك الضيعة .

القرية في أحضان التل ككائن أنهكه التعب .

وعلى التل يقع « بيت النار » معبدهم المقدس ، الذي خرج منه هذا الشاب المجوسي لتوه وأخذ يهبط التل ، في أنفه رائحة بخور وفي أذنيه أدعية مهموسة ، وصورة لخدام المعبد وقد أخفوا أفواههم بأربطة وهم يوقدون النار في الهيكل المظلم ، حتى لا تلوث أنفاسهم طهارتها .

عندما استقرت أقدامه على الارض أحس كأنه وصل الى شيء ، ألقى نظرة على الاشياء من حوله فرأى بين وحداتها تفاهما كان مفقودا من قبل . وأحس كأن هذا النجم الذي يومض في السماء يخاطب هذا الحجر الملقى على الارض . ليس هناك شيء منفصلا عن شيء ، وكل المخلوقات تواكبت في وضع واحد كتناسق الانغام في اللحن .

وقف متأملا كأنه نسي المشي ، وألقى نظرة على بيت النار فوق التل فأحس غربته .. هذا هو الشيء الوحيد المنفصل عن كل ما حوله . وكأنما اتفقت الكائنات جميعا على خصامه . نزل عليه الليل أشد ظلمة وكأنما الفجر على بقية الاشياء . وأحس الشاب ان قلبه ينبوع لكل هذا . فمنه صدرت اشارة حار في معناها غيرت نظرته للكون . فهو منذ بلغ رشده وهو يبحث عن الله . وقاده اليه هرابذة [1] المجوس وقالوا له: « انه هنا ... » .

وعلموه وتركوه يعلم الناس مثلما علموه . وقدم النبات المقدس

---

(١) الهرابذة : رجال الدين عند المجوس .

للنار العظيمة ، الكائن الابدي المطهر في نظرهم .

وها هو ذا فجأة ينظر الى الحجر والنجم ويلحظ بينهما تفاهما وتناسقا ، ويشعر ان سر التفاهم نبع من قلبه ، ويرى الليل جاثما جدا على معبد النار .

عند ذلك تأوه الشاب آهة تحمل غاية أسرار لذة (الوصول) وكل آلام جهد (البحث) ، فيها عبادة مثل الصلاة وخشوع مثل الركوع وتحية لوجه عظيم عرفه ..

ثم أجد السير نحو داره ..

هذا الشاب ابن دهقان القرية . كان أبوه مشغولا منذ أيام في جمع الضرائب وثمن الهدية التي قدمت لكسرى . أبوه رجل قصير غليظ شديد الوطأة على الناس كثير الحب لأبنائه .

ولم يكن في حياته شيء أغلى ولا أعز من هذا الابن . لم يكن يناديه باسمه بل كان يناديه دائما يا « أنا » والانسان لا ينادي نفسه علنا . لذلك كان يحبه قدر ما يحب الدنيا مضافة اليها نفسه . وعندما يهل عليه يقبل حاجبيه المقرونين ، يقف على أطراف أصابعه لان ابنه كان أطول منه ـ وفي أغوار عينيه السوداوين كان يرى كل مقدس ، وشيئا مثل هيكل النار ذي الظلام والوهج في بيت المجوس على قمة التل .

ودخل الشاب داره ولقيته امه التي تخاطبه بتحية أبيه :

ـ هل جئت يا « أنا » ؟

ولم يرد الشاب بل سأل :

ــ وأين أبي ؟

ردت في اهمال امرأة تنادي الجواري فيحملن اليها أكثر مما تطلب :

ــ لعله يجول في المزرعة .

ولم ينتظر بل ولاها ظهره وخرج ، لم يكن يدري لماذا يبحث عن ابيه . ولم يكن يدور بظنه أنه يبحث اليوم عن خصم عزيز . وفي ساحة الدار رأى فرسا عربيا اشتراه ابوه في احدى رحلاته الى الجزيرة فهم ان يركبه ، ولكنه أعرض وآثر أن يذهب ماشيا الى أبيه .

وعند أطراف المزرعة سمع على بعد صهيل حصان وضجيج غضب ، وكان الصوت صوت أبيه يهدر ويتدفق ثم ينقطع من الجهد ، ولم تكن هذه الاشياء قليلة ولا نادرة فقد كان من أقسى الدهاقين في الاقليم . لكن الشاب يحس الليلة بأن شغاف قلبه شديد الشفافية غير قادر على لمسة ، وعندما قارب موقعه سمع صوت جلد ورجلا يصرخ وسوطا يئز في الهواء يصاحب كل هذا صهيل الحصان ... ثم خوار الخنازير .

وتقدم الشاب من أبيه الذي كان يجلد رجلا ... ومد يده اليه ضارعا :

ــ أبي .

فتوقف الرجل عما كان فيه . ثم هتف وهو يلهث وأطرافه ترتعد :

ــ هل .. جئت .. يا « أنا » ..

هتف الشاب بينه وبين نفسه وهو يهز رأسه وعيناه تفيضان بالدمع : « أخطأت .. لم يعد اسمي كذلك .. أصبحت رجلا غيرك .. ورجلا غير نفسي .. بل ربما كنت نفس هذا الرجل الذي تجلده .. كل هؤلاء المساكين في جلدي .. أصبحت أحس وقع السياط عليهم ». وتأوه .. تلك الآهة التي تحمل سر اسرار (الوصول) وكل آلام (البحث) .. عبادة مثل الصلاة وخشوع مثل الركوع وتحية لوجه عرفه ..

كان صوت ابيه المتقطع لا يزال يصل اليه في ظلمة الليل :

ـ لماذا لا ترد علي يا « أنا » ؟

وهاج خوار الخنازير كأنها تحتج على جلد راعيها . وتقدم الشاب من الرجل المنزوي عند باب الحظيرة واحتضنه ففاحت منه رائحة سماد وروث . ولاذ الرجل بين أحضانه كأنه لمس انسانا لأول مرة .

وتراجع الدهقان مذعورا . أدرك عمق الخطر الذي أتاه ابنه الشاب الذي يلبس الحرير وهو يحتضن راعي الخنازير . ثم همس :

ـ ماذا فعلت يا ...

ـ وقطع نداءه وصاح بصوته الأجش :

ـ لا .. لست « انا » ... انك « أنت » شخص جديد لا أكاد أعرفك .. ماذا فعلت ؟

همس الابن كالمأخوذ :

ـ ولماذا تجلده ؟

رد الاب صارخا :

ـ مات اليوم تحت يده ثلاثة خنازير ... فماذا لو مات هذا الرابع ؟

ـ انه لا يدخل في العدد يا .. « وتنحنح » .. لانه انسان .

وحرك الدهقان سوطه في الهواء ، فأز في الليل كأنه جرحه . واحتار فيمن يضرب ، وخيل اليه انه على وشك أن يهوي به على وجه ابنه الشاب الذي لم يعد « أنا » ، وأحس كأن كفيه كانتا قابضتين على شيء عزيز وسقط ، ثم ركب حصانه وركض ..

★★★

كانت رائحة الراعي تملأ أنف الشاب بعدما آوى الى حجرته . وكان بينها وبين رائحة بخور المعبد تطاحن ظاهر ، وتعادلت الرائحتان بعد فترة ثم تفوقت رائحة الانسان . وخفق قلب الشاب خفقة حار لها . ففي نفس هذه الليلة رأى اشارة التوافق بين النجم الذي يتوهج في السماء والحجر الملقى على الارض . وها هو ذا الانسان في أدنى درجاته يدخل في دائرة التوافق .

عندئذ بدت له معالم حجرته بوجه غريب ، فوسائد المخمل وأواني الفضة وملابس الحرير والسيف الاثري المحلى بالجواهر المعلق على الحائط ـ كل هذا لم يعد يرى فيه الوجه العظيم الذي عرفه . بل لمسة الحنو للراعي وصيحة العدل في وجه الظالم وتراجع سوط الدهقان هي العبير الجديد الحي الذي ملأ وجدانه .

وفي الناحية الاخرى من الدار بات الاب يتقلب في فراشه ، فلما أصبح الصباح والتقى الوجهان رأى الاب على وجه ابنه حيرة يقظة ،

حيرة من يبحث عن شيء كان واثقا من انــه موجود ثم اختفى فجأة . وكانت عين الشاب تبحث عن أبيه في وجه أبيه . وتبادلت القــلوب لغة التنافر فلم يستطع الاب ان يناديه يا « انا » بل ألقى اليه فورا بأمره أن يذهب الى الضيعة ليرى ما اذا كانت هناك خنازير قد ماتت اليوم .

وصدع الابن بالامر .. ومشى ، ولم يكن راعي ليلة البارحة موجودا بل كان هناك رجل غيره على وجهه تعبير يعذب النفس لانه يصف العذاب بالصمت . الوجــه العكسي لسكون النشوة وصمت اللذة . فكما ان سائس الخيل أعدته الحركة والخيلاء والنظافة ، فقد بدا راعي الخنازير كمخلوق يتطور الى الوراء حتى أوشك أن يكون خنزيرا ، لكن وجهه يروي قصة عذاب تألم لها الشاب وأحس إن كتب المجوس الخمســة والأدعية والنار المقدسة والطقوس التي تأوّوا بها لكثرتها لم تفعل لهؤلاء شيئا ، وانهم يخاطبون آلهة تتصارع وكأنها في صراعها مشغولة عــن سعادة الانسان .

ورأى الشاب جراحا مثل جراح البارحة على وجه راعي اليــوم وان لم يكن مجروحا ، فمشى يضرب في الخلاء غير عارف الى أي وجهة يسير . والشمس غائمة ورياح متوسطة الهبوب تداعب صداريته وأطراف سراويله الواسعة وتلفح بشيء ما وجهه الساهم .

وبين حين وحين كان ينظر الى السماء . هناك أكداس من السحاب الأشهب والرمادي بينها وديان من الرقعة الزرقاء . شعر الشاب ان روحه تمشي في هذه الوديان وانها ترى في نهاية الوادي جنة خضراء . عندها ناس مجتمعون . ملابسهم غير ملابس الفرس وتقاليدهم غير تقاليدهم . على وجوههم تعطش شديد ومعرفة أعظم بالوجه العظيم الذي عرفــه

امس ، أمس البارحة .. مساء .. والليل يهبط على القرية .. والمعبد الذي هجرته نفسه يبدو وكأن الليل نام عليه والفجر يلون كل الكائنات بلون فضي .

وأحس بحاجة الى البكاء . فبكى .. من شوق مبهم يخالطه وعد غامض باللقاء . وأحضان في رحابة الابدية ودفء الحياة كلها بكل أنواع الدفء . دفء الريش والزغب الشمسي والقلب والحب .

وأحس الدفء فعلا في أوصاله .. ونشط هبوب الريح فحمل الى أذنيه نشيدا . كاد يحار في مصدره أول الامر لكنه سرح ببصره في كل اتجاه حتى عرف مصدر النشيد . وسار اليه . ودخل على ناس هناك . وخيل اليه انه يرى شيئا خيرا مما كان يراه في معبد النار . وهناك نسي نفسه حتى انقضى اليوم كله . لم يحس فيه بتاتا بحاجة مادية . لا طعام ولا شراب . احساسه الروحي خدر كل الحواس ، وتحولت كل الطاقات الى خدمة الروح ، فالعين تبصر وترى ما وراء الاشياء ، والأذن بدأت تسمع في الاصوات نبرة جديدة ، وكل طرق المعرفة نبعت من القلب وعادت اليه وأصبحت الحواس الاصلية خدما عاديين فلم يشعر بجوع ولا ظمأ كأن الجسم الطيني الاصل في منتصف الطريق الى الشفافية والاستغناء ، مثلما يتصل بأصل الوجود ومصدره ومدبره ومسير الافلاك فيه .

ودخل الليل مرة اخرى وانصرف الشاب عائدا الى داره . قطع نفس الطريق ، وقلقت الام وأشعلت في الدار كلها نار القلق ، وبكت الاخت (موران) الحسناء لان شقيقها لم يعد . وهي تعلم ان خلافا قد نشب بينه وبين أبيه ليلة امس وان الاب حرك السوط في الهواء ليلهب به

وجه « أنا » ، لكن كفه خذلته .

وبدأ الاب يقلق . وبعث في طلب الابن ناسا من الأتباع . لكنهم فوجئوا والليل متقدم بدخول الشاب وعلى وجهه آيات من الجهد . دقت الام لها صدرها .

وجلس الرجل الغليظ وحوله زوجته وبنته ينظر الى الشاب السمهري العود نظرة جبارة ، فيها من الاتهام أضعاف كثيرة . فهو في نظر ابيه الليلة غير ذلك الذي ولده .

ــ أين كنت يا .. أنت ؟

أطرق الشاب مليا ثم رفع رأسه ، ورأى الاب حاجبيه المقرونين اللذين طالما وقعت بينهما قبلاته فدق قلبه بالحب العاتب . ثم بدأ الشاب يتكلم :

ــ مررت على رعاة الخنازير كما أمرت .

ــ وماذا وجدت هناك ؟

ــ وجدت شيئا لم تعرفه يا سيدي .

لم يسمع منه كلمة أبي ولكنه تناسى ، وعاد يسأل :

ــ ثم ماذا ؟

ــ وجدت الله في كل مكان سرت فيه .

جلجلت ضحكة الاب الفظ حتى جفلت (بوران) من صخبها .

ثم سأل الاب :

ـ ووجدته عند الخنازير ؟

ـ نعم ، انه رب المساكين .. وجدته على صورة جديدة ، على صورة الحق . ليس في النار التي حرمتم على الشمس ان تراها ، وليس في الشمس التي غلبتها النار على سلطانها في المعابد . ليس في شيء من هذا . وجدته في آلام الانسان ليلة أمس ، ثم الدعوات الضارعة اليه في السماء .

فتح الاب فمه ثم نسيه مفتوحا ، وصوت أقرب الى همس الفحيح يخرج منه بلا ارادة . عينا الاب تسألان الابن من جديد في عجب خائف متحفز جبار :

ـ ماذا قلت يا مجنون ؟

ـ هناك .. على بعد عشرة أميال .. رأيت النصارى يصلون .. فدخلت عليهم .. فأعجبني ما يقولون ..

وبصوت جبار صاح الاب الغليظ :

ـ يا دعوة باطلة ... انهم يعبدون ما لا يرون ونحن نعبد ما نرى توسلا به الى ما لا نرى .. هل تضحك يا مغرور .. لقد كنت حجة المجوس وفخر هرابذتهم .. كفاك .. يا بوران العالية .. هاتي أغلظ قيد من الحبال لأضعه في يدي ورجلي من كنت اناديه : « أنا » ..

وأجهش الرجل بالبكاء بعد ان تركه ، وذهب الى النار المقدسة في البيت وسهر الى جانبها حتى نهاية الليل .

***

أما الشاب فقد بقي مقيدا في حجرته . وكلما دخل عليه أبوه راى على وجهه آيات نادرة . آيات معرفة قد تبدو العين معهـا زائغـة لكن الوجه مستنير .. مثل استنارة القمر بنور الشمس .. نراه وان كنـا في الظلام ..

ودخلت عليه (بوران) تبكي ومعها طعام فأعرض عنه ، فجلست الى جواره ، فاحت منها رائحة السكينة وان أحس بوضوح احساسا كأنه جديد ـ انهـا من عبدة النـار ، ولاحت له عيناهـا الفارسيتـان المكحولتان وهما مائجتان بالدمع مثل بحيرة سوداء . وفاحت في حجرته رائحة حب انساني على عظمته وقوته بدا جاثيا تحت اقدام حبه الجديد الذي أخذ عليه العقل والقلب .

واغتصب ضحكة وقال :

ـ بوران .. ان ملكة الصين المكحولة بكحل فارس هذا الذي في عينيك ... لتسجد لك ان رأتك ..

قالت ودموعها تصل الى ثناياها وهي تبتسم :

ـ ماذا قلت يا اخي ؟.. ان كنت تحبني حقا فارجع عن الديـن الذي دخلت فيه .

فأجاب مهموما ، هم الذي يـود ان تشمل النعمة الجديدة ناسـا يحبهم :

ـ آه يا بوران الغالية .. ليتك يا حبيبتي تشعرين بما اشعر به .. الجنة الآن في داخلي .. ذراعاي خلفي وقدماي موثوقتان والراحة تملأ القلب . عيني وراء أفقكم يا بوران ..هناك صلاة ذات أجنحة ترتفـع

بأصحابها الى السماء ، وهناك صلاة كسلاسل الميناء تشد السفينة الى الارض ..

ــ أحل وثاقك وألقى جزائي ؟..

هتفت بصوت كأنه آت من عالم بعيد :

ــ لا تفعلي .. فالقوة التي حلت وثاق القلب ليست عاجزة يا بوران عن ان تحل وثاق قدم .

ثم ابتسم دامعـا . وتركت له الطعام وخرجت لانه رفض يدها .

ودخل الليل فجاء ابوه . ألقى عليه نظرة وأطفأ النور وأغلق الباب وانصرف . وسكنت القرية . ليس فيها الا أنفاس الرياح ثم أخذ البرق يلمع . وليس هناك صوت مطر لكن الرعد يدمدم على ارتفـاع عظيم كجبال من الحجارة يأتي صداها الى الارض . وشعر الشاب كأن شيئا قديما يتداعى لكنه على قدمه ضخم . فذكر معبد النار على التل . وأركانه الثمانية وأبوابه المتعددة وصوت الهاون الذي يدق نبات « الهومـا » المقدس ليرش أرضه . وأخذت جبال الاحجار تتداعى من جديد . ثم لمع البرق . دخل شعاع منه الى حجرة الشاب فوقع على الحائط المقابـل للنافذة فلمع السيف الأثري في ترف . وهتف الشاب في نفسه وكأنمـا ذكر شيئا : « يا مخلص الاسرى » وصمم على أن يصل اليه على الرغم مما في ذلك من مشقة ومخاطر ، وهو حين يزحف موثوقا حتى يصل الى الحائط فلن يستطيع الوصول اليه الا عن طريق الرجلين . وها هو ذا وميض البرق يتوالى وأخذ السيف يرسل بوميضه كأنه ينادي الاسير . وصل الى الحائط ووضع عليه رجليه واحتال .. وهو يقف على رأسه قليلا ــ في أن يجعل القيد بين الحائط والسيف . وساعده عوده الطويل على ان يصل

بقيده الى مقربة من حمالة السيف ثم ارتمى بكل قوته الى الناحية المضادة فانخلع السيف من الحائط وانغرس في الارض .

صلصلت في الظلام حركة سيف وحيد ثم خرست فأيقن انه وقــع على شيء لين . وعندئذ تنفس الصعداء . فقد كان ممكنــا ان ينغمس السيف في جسمه . ولكن القوة التي حلت وثاق قلبه غير عاجزة عن حل وثاق رجله .

واتكأ بظهره للحائط وجلس صامتا . قلبه يخفق بسعادة غريبــة . منتظرا ان يدله السيف ــ بنفسه ــ على مكانه .

وعاد البرق يلمع فرأى موقع السيف . زحف اليه حتى لمسه بقدمه وهو مغروس في الارض فانطوى عليه وجعل ذقنه فوق مقبضه فثبتته في الارض قوته الفتية . وبعدئذ أخذ يحك القيد في السيف . وانبعث في الظلام صوت معدني ينشر كتانا كان له في أذن الاسير صــدى الاناشيد والصلوات . وشعر ان المشقات أعظم الابواب التي تؤدي الى الله . وان الذين يعانون المشقة في دنياهم محسوبون على الله في آخرتهم .

وعاد البرق يلمع . فوقع ضوءه على أواني الفضة . فأحس وهــــو منغمس في قطع الحبال ان هذا السيف الأثري كتب له ان يخدم الله على طول المدى . ولو انهم قالوا عنه : انه كان في يد قاطع طريق وان أحــد أجداده ظفر به وقتله وأخذ سيفه هذا .

وتنهد : « لكأنما عاش السيف ليكفر عن سيئات غير محسوبــة عليه . بلّ على اليد التي كانت تحركه » .

ثم ندت منه تنهيدة ارتياح . لقد انقطع الحبل . وها هو ذا يشعر بأن قدميه قد حررتا . شعر فيهما بقوة عاتية ... خيل اليه انه قادر على ان يضرب الجدار باحداهما فيتداعى ، وانه قادر على الجري بهما حتى الشام. موطن الدين الجديد ، والذي له عليه النصارى حين سألهم عن موطن دينهم .

وتأوه . « الشام » .. آه « الشام » .. لا بد من الذهاب الى هناك ولو كلفني ذلك حياتي .. » .

وشعر ان مسقط رأسه ليس في هذه القرية بل هناك في ارض عرفها قلبه وان لم ترها عيناه .. كأن القلب ولد فيها .. هناك سيجلس تحت ظل الله . وليس قدره في يديه القويتين ولا عند أبيه ذي الجاه والمال والسطوة .. لم يعد يرى الله في شيء مما حوله . الا في بريق هذا السيف .. أما بقية ما يراه فكأنه في خصام مع الحقيقة المطلقة تلك التي لمست قلبه ريشة من جناحها الابيض .

ووقف منتصبا وسط الحجرة . ثم أولى ظهره للسيف وجعل يحك وثاق يديه فيه بحركة غير متمكنة ، فسقط على الارض .

وجه اليه الشاب كلمة عتاب : « يا سلاح الله .. » ثم رقد على الارض والتقط السيف بين قدميه وقذف به مصوبا نحو باب الحجرة ، فانغرست نهايته في الخشب فسار اليه . وهناك غمسه في الخشب أكثر وأكثر بظهره القوي وجعل يحك وثاق يديه في حده حتى تحررت يداه من القيد .

صفق بهما في الظلام ثم نزع السيف من الباب وقبله : « يا سلاح

الله » .. واحتضنه كأنه ولده . ثم فتح النافذة وألقى نظرة على القرية النائمة .

★★★

قرر ان يغادر الدار قبل انبلاج الصبح . وشعر بفرحة العودة وانقضاء الغربة مع طول الطريق وقلة الزاد . ولكن في القلب قوة اعظم وهناك شوق مبهم يخالطه وعد غامض باللقاء . وأحضان في رحابة الابدية ودفء الحياة كلها بكل أنواع الدفء . الريش والزغب والشمس والحب .

ومن الصندوق الكبير المطعم بأغلى الاصداف أخذ كل ما يملك من ذهب .. نقود عليها صور وثنية لكن ذلك لا يضر . فكما ان سيف قاطع الطريق بدأ في خدمة الحق فان النقود ستفعل ذلك . كأنها (خدعة) في حرب مقدسة .

مر على حجرة (بوران) فدعا لها . وتصور رأسها الصغير على وسائد القطيفة وبخور من الأعواد المقدسة أحرق في حجرتها وحلمها بالجاه على حساب المساكين ، فدعا لها .

أما أبوه وأمه فكأنهما ماتا وهو صغير ولم ير لهما صورة . وعند نهاية الدهليز نادى الله .. وفي خلفية الدار باب سري مفتاحه في قفله ، في جيب مسحور في أسفل القفل لا يعلمه الا ثلاثة ، فكان في الباب قفلا بلا مفتاح .

سار اليه الشاب . ملأت روحه رائحـة وداع ووعد . آما الوداع فكان صامتاً بلا دمع ولا كلام . وأما الوعد فكان في غموض عبير البستان لكنه يؤكد العودة .. لكن كيف ؟

وانفرج الباب الثقيل بلا صرير كأنه في عونه . ثم رده خلفـه .. وقابلته آخر ظلمات الليل وفطن الى نفسه .. ها هو ذا في ملابس أولاد الدهاقين . حرير وقطيفة . وفي جيبه نقود ذهبية .. وضحك وهو يضع كفه على فمه حتى لا يسمع صوته حين اكتشف ان السيف معلق في كتفـه .. « الله .. فارس بلا حصان .. ومعه سيف أثري .. محلى بالجواهر .. » .

وعاد يهمس بضحكه .. ويقول في نفسه : « ليست خطاي اليوم من صنعي وحدي .. بل أحس بقوة علوية لها الملكوت جعلت هذه المتناقضات في مظهري .. »

ومشى .. كأن خطواته منذ هذه اللحظة أشبه بحركة المأخوذين .. يوم نشعر بأن ارادتنا متصلة بما هو اسمى من العصب المـادي فكأنما صورة من شعاع عكسته مرآة ... وهكذا كان .. ولذلك سار ــ نحـو حظيرة الخنازير ودق الباب .

لم يسمع صوت انسان ولا حيوان في الداخل . ولم تكن الروائح المنبعثة من الحظيرة في آنفه تحمل حديثها القديم بل حملت سراً آخـر خاصا بها اذ وصلت اليه هو .. هو وحده .. وكذلك تدرك الاشياء .

وعاود الدق .. رد عليه صوت مذعور في شبه صراخ ..

ــ نعم يا سيدي ..

وهرول الداعي وهو يردد الرد :

ـ افتح يا سيدي ..

ووقف الرجل خلف الباب مذعورا مذهولا يده لا تقوى على ان تلمس المزلاج .. أحد الناس ناداه بسيده .. راعي الخنازير هذا . وفي صوت من ناداه رنة صدق ، أحس معها الراعي انه سيد حقا . وكأنما لذ له أن يستعيد ما حدث .. ظمأ يريد صهريجا بأكمله ليرويه .. فعاد يسأل في مراودة :

ـ من ؟ من بالباب ؟؟

ـ افتح يا سيدي ..

ففتح الراعي فمه ونسي أن يفتح الباب : « ابن الدهقان ؟ هذا ليس معقولا .. يا اله النور هل آن لك ان تنتصر على اله الظلام ؟؟ » .

وفتح الباب فدخل الشاب وقال للراعي :

« هذه الملابس لم تعد تناسبني .. خذها واعطني ملابسك .. وخذ من المال ما شئت ، لا تقاطع ولا تمانع فان السيف الذي تراه معي بدأ يعمل أعمالا خارقة .. وقد كان من قبل في يد قاطع طريق (وابتسم) فلا تجعله يرتد الى أصله أيها الراعي .. وأنا أعلم انك لن تلبس هذه الملابس ولكن ممكن ان تبيعها .. لا تخف . فليس لي علاقة بها منذ الآن .. أصبحت ضيقة علي جدا . أحس انها تخنقني . ولا تذكر انك رأيتني لانك ان فعلت ستموت بسيوف كثيرة . ان الله قد امتحنك بي ايها الراعي .. لا شك انك رجل طيب .. فسارع ونفذ ...» .

كان الرجل يسمع صوتا غريبا . شخص يعرفه وصوت ينكره ...
فبدأ الشاب في خلع ملابسه لكن الراعي سارع وأحضر له حلة كان قد جهزها للعيد جديدة نظيفة ، وأخفى ملابس السيد في مكان ما حتى يثوب الى رشده . وأخذ الشاب قبل ان يرحل احدى الخرق ولف بها مقبض السيف المحلى بالجواهر . ثم ودع الراعي ومضى .

- ٢ -

يبس الخبز الذي يحمله وهو في انتظار القافلة التي ستأتي مـــن الجنوب ليركب معها الى الشام ، حيث سيلتقي هنـــاك بأساقفة دينـــه الجديـــد .

وكان معه رجلان من النصارى ملأهما الخوف من ان يعرف أمرهما هما يدلان ابن الدهقان على الطريق !!

وجعل الشاب يتأمل أعينهما القلقة وهو يقول في نفسه : « انـــك اذا أصبحت أنت والذي تحبه كلا واحدا فانك لن تحس بوجودك خارجه، ومن أجل ذلك فلن يكون لك كيان مستقل فأنت اذن لا تخاف » . ثم هتف في سره : « لكأنني ريشة غير محددة في الجناح العظيم الذي يظل الكون . لكأنني ريشة مكررة تقـــع من الجناح في كل مـــكان منـــه فأصبحت هي الظل والمستظل .. فكيف أخاف » ؟!

وعندما سمعوا حداء القافلة خرجوا من الكهف . ولما رأى الشاب نور الشمس يملأ الوادي الذي يسلكه المسافرون شعر كأنه ولد مـــن

جديد . وكانت الدواب التي تحمل السجاجيد وكثيرا من بضائع فارس تسير في نشاط بعد راحــة يوم في الطريق ، ومن أجل ذلك تأخُرت .

وركب بعدما أوصى به صاحباه وتركاه وعادا الى القرية ..

وهناك سمعوا نبأ اقشعرت له أبدانهم ، نبأ سبقهم كأنما ليكون في استقبالهم وهو ان ابن الدهقان قد مات .

واجتمع ناس من الفلاحين عند بيت النار على التل ، وساد بعض الاغنياء وعلى وجوههم آيات كدر لوقوع مثل هذا الحادث لمثل هــذا الشاب . اما الأب فقد أحس بأسى يخالطه فتــور مستريح . أسى مــن دفن عزيزا عليه عز عليه أن يعذبه المرض او يلوثه العار .

لذلك فانه عاش في حزن صامت . لا يسأل ولا يجيب .

أما (بوران) فقد مزق الحزن نفسها . حتى ودت لو انها صاحبته حيث كان ولحق بها ما لحق به .

فهناك على حدود أرض أبيه وجدت ملابســه ملوثــة بالدم وفي الصدارية المزركشة الارجوانية طعنات سيف قاطــع . الصدارية والحزام في مكان ، والسراويل في مكان ابعد .. وسيف مكسور وبقع دم عــلى الاحجار المنثورة والمؤدية الى طريق وعر تنهض بعض القمم على بعد منه وتفغر بعض الكهوف أفواهها على جنباته .

وفي بيوت النار صلوات وفي قلوب أهــل الدار أحزان .. وكــل الذي حدث بفعل الاب ، أخذ (طقما) من ملابس ابنه وفعل به هكذا .

وأحس بعدهـا براحة موهومة . راحة من دفن ابنه حقا ونجا من العار

أما الزراعي فقد كان بما عنده يعلم السر . وكان يذهب من وقت لآخر الى حيث هذه الملابس المخبوءة ليقبلها ويشم فيها رائحة الانسان ، ولم تكن السعادة التي في قلب الراعي أقل كثيرا من السعادة التي ملأت قلب الشاب والقافلة تسير به نحو نهر دجلة .

ودخل عليهم الليل فتلألأت النجوم . وأخذ شاب يغني في مؤخر القافلة . كان عربيا جميل الصوت متوسط العمر بهي الطلعـة ، وسمع الشاب غناءه فسحره . لم يعرف بعض ألفاظه لان العربية التي تعلمها من أصحاب ابيه الذين كانوا يفدون من ارض الجزيرة وما بين النهرين لم تكن تسمو كثيرا الى ما يتغنى به الشاب .

لكن الولـه كان يفـوح من كلماته . مثل نبـات لا يعرف اسمه لكن رائحته تخاطب القلب . شيء كهديل الحمام أو لغة الموسيقى .

وشعر الشاب برغبة في أن يكون الى جواره فتأخر حتى سار ازاءه . وبادله الحديث . بدأه ابن الدهقان قائلا له :

ــ ان صوتك أشجاني . ما اسمك ايها العربي ؟!

ــ آه .. اسمي سهيل .. هل ترى اسمي بين النجوم ؟!

(ورفع العربي وجهه الى السماء وتبسم) انظر .. أن سهيلا يرتفع هناك ناحية اليمين .. أيها الفارسي . ان صوتك في الظلام يبدو وكأنـه يحمل رنة العظمة . ما اسمك ؟

ــ اسمي ؟!.. اسمي ابن الدهقان ..

ـ هكذا فقط ؟!

ـ هكذا فقط !

ـ حسن .. (صمت وبعد قليل) ولماذا أنت مسافر ؟!

ـ بسبب الحنين .

ـ لكن وطنك ليس الشام . بل انت من فارس !!

ـ غير ان من أحبه في أرض غير أرضي !!

تمايل العربي وهو راكب وكأنه سكر بشيء . وأخذ يغني للحب . عادت نبرته أكثر رقة ورطبت بحته نداوة الدموع . وعندئذ بكى الشاب، وكف العربي عن الغناء وسأل رفيق سفره .

ـ هل قلت شعرا فيمن تحب ؟

رد عليه صوت مشروخ فيه الأسى والرضا والشوق والصبر والاستعداد المطمئن لحمل المشقات :

ـ قلت فيه شعراً صامتا .. هل تعرف نظرات العبادة ؟! حين ترى العين من تحبه ولا تراه في وقت واحد ؟! وهل سمعت أذنك ذات ليلة صوتا ثم فتشت عن مصدره فتحيرت وانت سعيد حين ادركت ان أذنك سمعت قلبك ؟!

ـ أيها الفارسي .. أذهلتني .. ما سمعت قط مثل هذا الكلام . آه.. أوتينا البلاغة وأوتيتم الحكمة .. فمن تحب يا ابن الدهقان ؟..

ـ حبي جديد قديم لا أول له ولا نهاية ، لانه عبير ذلك المحبوب .

رد العربي بعد تأمل :

ــ أيها الفارسي . انك تتكلم عن (دين) . أليس هذا حقا ؟!

ــ بلى .. انه حق !!

ــ وهل انت فرح به ؟

ــ بل أنا ثمل به . وما دينك ايها العربي ؟!

ضحك العربي في حرج وعاد يغني :

« يا حبيبتي عندما يسألوني عن ديني فابتسمي لهم ..

« عندما يرون بريق الندى على ثناياك يا بيضاء سيكفرون بالاصنام.

« حتى عبدة النجوم سيسجدون لعينيك في ليل شعرك الاسود ..

« الحياة والموت في كفيك كأسان مترعتان بالسكر ..

« وعندما يسألونني عن ديني فابتسمي لهم يا حبيبتي .. »

وصمت . وسكت الليل . ولم يعد يسمع الا جرجرة الدواب على الطريق . وعندئذ قال الفارسي في نفسه : « انه وثني » لكنه شعر نحوه بحب مطرد . وأحس كأن علاقة عميقة الجذور تنبت الآن على شغاف القلب .

وها هوذا نهر دجلة يلمح لعين المسافرين ..

والشمس تفرش الشط بأشعة لينة . والفارسي يتأمل وجه العربي والعربي يتأمل وجه الفارسي وهما واقفان متجاورين كأنهما صديقان منذ أعوام .

كان النهر في ابان فيضانه والسفينة الكبيرة راسية على الشط

والحمالون دائبو الحركة . هناك صناديق يستعصى حملها على الرجال ، فتقدم اليهم الفارسي مساعدا فرأوا منه العجائب .

وكان سيفه الأثري في يد العربي يحملق في حده بعدما أخرجه من غمده الجديد .

وعندما فرغوا من شحن السفينة قدموا اليه بعض الدراهم فرفضها. ان معه نقودا وهو منذ اليوم عازم على ألا يأخذ أكثر مما يحتاج . وقد عرف بوضوح حدود حاجاته .

واذا كان البناؤون لا يأخذون أجرا على اقامة احد بيوت النار في بلاده التي تركها خلفه ، فكيف يأخذ هو أجرا على انه ساعد على السير سفينة يركبها في سبيل الله ؟!

وأكل العربي والفارسي من طعام واحد عندما بدأ شاطىء عاصمة آل ساسان « المدائن » يبتعد قليلا قليلا . وكان النهر عالي الماء وربان السفينة مجوسيا فسمعه الفارسي وهو يتمتم بأدعية المجوس . وخيل اليه ان السفينة ستتعرض لخطر . وما لبث أن سمع أدعية أخرى تنبعث من بعض النصارى جنب أحد الصواري . ثم نشرت الأشرعة فما لبث ان سمع صديقه العربي ينادي اسما عرف انه اسم صنم .

وعندئذ هاجت في نفسه خاطرة عجب لها . وأحس ان الله لا بد ان يجري بها مقاديره . وإذا كانت كل الطرق تؤدي اليه فليس معنى ذلك ان الخسيس منها يؤدى الى الله !

والفكرة العظيمة لا تأتي الا نتاجا لاحساس عظيم يسبقه ارهاص

عظيم يهيىء النفس لهبوط الفكرة ، كما تتجلى الطبيعة لمقدم الربيع .

وفي الليلة التالية كان النهر ثائرا . وكف ركاب السفينة عن الكلام كأنهم يرون الموت تحت كل موجة . وكان الفارسي يقول في نفسه : « ربما جئت لألقى الله في النهر .. انني الآن على يقين من انه خارج بيوت النار .. هو هناك ايضا على الجبل المجاور وفي السهل الذي يطل عليه ذلك الجبل. وهو هنا في النهر .. فربما جئت لألقاه هنا !! » وتبسم لنفسه . وعندئذ جاءت من العربي تنهيدة . فقال له الفارسي وهو يربت كتفه :

ــ غن يا سهيل .. لماذا كففت عن الغناء ؟!

ضحك سهيل قائلا :

ــ وهل هذا وقت الغناء يا حديد القلب ؟!

ــ الغناء دعاء ، فلو كنت محبا لمن تغني له لغنيت ساعة المخاطر . ليكن غناؤك عبادة لا شهوة .. ناد اسم صنمك ؟!

فهمهم سهيل به على استحياء ، فقال له الفارسي :

ــ ما لي لا اشم من ندائك رائحة الحقيقة .لا تظنني يا أخي أسفه الهك ولكني أسفه ضحالة العلاقة بينك وبينه الآن . لو كان حاميك ما أخافك النهر .. انظر واسمع .. فلو تصورت انك تعبد هذا النهر كبعض الهنود ربما لم تخف من الغرق فيه . ولو عبدت الها تسع مملكته السماوات والارض ما خفت من شيء في الارض الا مما لا يرضى هو عنه . غن يا سهيل . ان كنت تحب صنمك فغن له في المخاطر بقلب مطمئن .. ألا تسمع همهمة المجوسي .. ان فكه يرتعش من الخوف من اله الظلام ..

وضحك الفارسي . وأخذ النهر يمرجح السفينة وأخذ النوتيـة ينزحون من السفينة الماء الذي اندفع اليها . ولم يلبث الفارسي ان نهض وتبعه العربي ففعلا مثل ما يفعل النوتية .

ولم تلبث ساعة الخطر في هذه المنطقة الشديدة الانحدار ان انحسرت وبدا على الافق ذلك اللون البنفسجي الساخر . وولى الليـل ، وكان الجهد قد أخذ من الركاب كل مأخذ ولم يكن مع الفارسي ملابس غير التي بللها الماء ، لكن العربي ألبسه بعض ثيابه حتى جف ثوبه المبلل ، وأخذا يأكلان معا طعاما بعضه من المدائن وبعضه من بلح الجزيرة . ولمـا هدأت الخواطر أخذ سهيل يغني وهو يبتسم :

« يا حبيبتي .. عندما يسألونني عن ديني فابتسمي لهم ..

« عندما يرون بريق الندى على ثناياك يا بيضاء سيكفرون بالاصنام» .

وعندئذ ضحك الفارسي والعربي في نفس واحد . وقال الفارسي في سهوم وفمه على مقربة من أذن سهيل :

ـ سهيل ..

ـ نعم يا صديقي .. أنت مصدر طمأنينة عظيم .

ـ سهيل . ابحث عنها تجدها .. انها ليست بعيدة المنال . سهيـل .. في داخل كل منا نوع من الحشرات السامة ولن يستطيع قتلها الا ذلك الذي تسكنه لانه أدرى بأحجارها ومساربها . وبعد أن يفعـل ستنزل الطمأنينة حيث كانت هذه الحشرات . قل يا سهيل .

ـ نعم .

ـ انك تتوسل بالصنم الى الله .. هه ؟

ـ لا أجد يقينا ..

ـ فان كنت تعبد الله لانه خلقك فأحرى بالصنم ان يعبدك لانك خلقته ، وليس العكس ، مالك صامتا .. انك لا تجد اليقين ؟ حسن .. هذا خير .. وانا مع يقيني أشعر انني أبحث عن شيء . فبعض اليقين مرحلة ليقين أعظم . ألا ترى ان المجوسي والوثني والالهي في هذه السفينة يظن كل منهم الآن ان الهه هو الذي نجاها من الغرق ؟ وليس ذنب الاله العظيم ان ينسب الجهال بعض اعماله الى (ما) لا عمل له . سهيل .. أطعسني من تمر جزيرة العرب تمرة واحدة فاني أجد لطعمها حلاوة في نفسي قبل فمي .. لست ادري لماذا ؟

رد سهيل في همس :

ـ يا صديقي الفارسي لقد وصلت بي الآن الى مرحلة كنت تجاوزتها من قبل .. مرحلة ألا أؤمن بشيء .. وقد عذبني عليها ابي وكان يستصحبني قهرا الى بيت الاصنام . وهناك أقف فأردد ما يقولون .. غير ان القلب لا يمكن ان يعيش هكذا .. قلب لا صلاة له ... انه لن يكون الا كبعض الازهار التي رأيتها في بساتينكم تشبه العيون ولا ترى ، وقبل ذلك فهي لا رائحة لها .. (وتأوه العربي) ..

ـ لا تحزن يا سهيل .. ولكن لا تنس نفسك ..

***

وعند مدينة (آمد) قرب نهاية النهر اختلفت الطريق بالصديقين

وأصبحت القافلة قافلتين .

فسار الفارسي مع النصارى وسار سهيل مع بعض صحبه ..

وكانت الرحلة برية منذ الآن ..

وتعانقا وفي عينيهما دموع .. وقال الفارسي للعربي :

ـ عندي شعور عليه ظل اليقين أنني سألقاك يوما ما ..

ـ ربما كان المنى على هيئة شعور .. لعله الحنين يا صديقي كما تعلم ..

ـ لقد تركت خلفي أشياء كثيرة يا سهيل لا أراني نادما عليها ، ولا شاعرا بالحنين اليها .. ورائي أب وأم واخوة وجوهر وذهب ، وأرض ورقيق ومركبات يا عربي ، وسلطة ومكانة . ورائي في أرض ساسان كل ما تشتهيه نفس في شبابها .. لكني لا أحن اليها .. لكني ايها العربي أشعر وكأن شيئا من دمكم يجري في عروقي ..

تأوه سهيل :

ـ ليدعو كل منا الهه بأن نلتقي مرة اخرى ..

جلجلت ضحكة الفارسي ساخرة :

ـ لن نلتقي ايها الصديق الا اذا كان الهنا واحدا .. تعال أقبلك ..

ثم افترقا على الطريق .. وبعد قليل من الزمن وسواد القافلتين لم يغب عن العيون ، كان الفارسي يجري في اتجاه العربي من جديد وكان العربي بالتالي يجري في اتجاه الفارسي . التقيا والعرق يتصبب منهما ..

فتبادلا السيوف والقبل . فقد كان كل منهما قد نسي سيفه مع صاحبه ، ثم فطنا الى ذلك .

وعندئذ قال العربي لصديقه :

ــ ألا ترى أن هذا وعد جديد باللقاء ؟! رافقتك السلامة يا صديقي ..

- ٣ -

« آه يا رب ، رأيت كثيرا من عبادك على رقعة فسيحة من الارض ، قليل منهم يعرف الطريق اليك وكثير منهم عاش يدور في حلقة مركزها نفسه ومحيطها شهواته .. ان نورك الذي يغطي السهل والجبل غير بعيد على بطون الكهوف ونفوس المخطئين . وهأنذا أحس يا ربي انك تختص بعظيم اسرارك كل الذين يبحثون عنها كأنك تسعى الى من سعى اليك وتنسى من ينساك .

رأيت كثيرا ممن لا يعرفون حقيقتك يخدعون الناس عنك . وقد بكيت عندما رأيتهم يوهمون الناس أنهم واقفون ببابك يأذنون ويمنعون، فبكيت من اجل هؤلاء المحرومين أكثر من الذين حرموهم ، لانك لن ترضى عمن يسمحون لغيرهم بأن يبيعوهم رضاك وكلهم عبادك .

هأنذا سائر في طريقي اليك مرة رابعة .. ركبت ومشيت وجعت وعطشت وبت في العراء ، وليس هذا منا عليك يا الهي ولكنه صلاة في قدس محرابك . فاقبل صلاتي واهد خطواتي » .

هذا ما كان الفارسي يهتف به وهو يرى على البعد مشارف مدينة « عمورية » بعدما ترك « نصيبين » وبعدما أقام بها مدة من الزمن . كانت نفسه مليئة بالقلق في هذه المرة ، وهذه هي أرض الروم التي يظنها خاتمة مطافه بعد ان ترك أرض الشام . سائر على طريق يلمع بآثار المطر شاق يرتفع بشكل غير تدريجي وحدائق اللوز والبندق والأعناب تنتشر في بقاع متفرقة . وأبنية على السفوح ذات طراز روماني وأكواخ رعـاة . والشمس تلقي بشعاعها بين غلالات الضباب على الجبال فتعطي ألوان الطيف على القمم ، وعين المسافر مأخوذة وقلبه مشتاق .

ولم يلبث ان مر على دسكرة من الدساكر (١) المنتشرة في الاقليم فلقي رجلا أنيق الهيئة يقود حصانا ليس عليه سرج ، وفي فمه شيء يمضغه وفي يده بقية منه لم يعرف ما هي . واستوقفه المسافر بنظرة من عينيه القويتين . كانتا لم تتأثرا بوعثاء السفر وان بدا جسمه ضاويا الى حد ما . ووقف الرجل وهو يمضغ وعيناه تستجوبان المسافر في غير مودة ، وعندئذ سأل المسافر :

ــ أين تقع صومعة الا .....

فقاطعه الثاني ولم يكف عن المضغ :

ــ لست اعرف شيئا عن الصوامع .. أنا اريد سائسا للخيل فتعال ان شئت ..

والتقت العيون بعد ذلك في تحد مثل ضربات السيوف . فقد شعر

(١) الدساكر : القرى الصغيرة .

الفارسي انه اتهم بالتسول ، ولم تفارق عيناه وجه الرجل حتى شـل حركة فمه وتوقف عن المضغ . وفجأة وثب الى ظهر حصانـه العـاري وركض به .. ترى مم خاف ؟

وواصل المسافر طريقه فقابله أحد الرعاة معلقا مخلاة في عصا سائرا يترنم .. ولما استوقفه بنظراته حملق الراعي في عينيه وحاجبيه المقرونـين وسأله المسافر :

ــ أين تقع صومعة الـ ....

فقاطعه الراعي بسرعة شديدة ، واتجه الى ناحيـة الشرق وأخذ يشـير :

ــ على بعد فرسخ واحد ستجد تلا عليه كنيسة قديمة . وبعد ان تترك التل والكنيسة ستجد سهلا صغيرا فيه صومعة السيد العابـد .. وهمهم : « امنحنا اللهم بركاته » ..

***

ولم يكن احد على مقربة من المكان ، ولم يكن على مسكن العابد علامة تدل عليه الا الوحدة والتفرد . وأحس المسافر بعظمة التوحد في هذا المكان الذي يشبه القطعة الخضراء بين تلك التلال المحيطة . وعـدل من هندامه شيئا ما (اذا صح التعبير) وألقى نظرة الى السماء وتقدم من الباب بخطا مشتاقة .

المكان بقية من بناء تداعى من الخلف وبقي جزؤه الامامي ، والجزء

الخرب يعادل تسعة اعشار المساحة والباقي العشر . وهناك في الخلف آثار سور بني على الطراز الروماني كما ان الباب يومىء الى نفس الطراز . وعلى المدخل غموض ذكر الطارق بشيء جعله يبتسم : « من أرض كسرى الى أرض قيصر وهي في الحقيقة أرض الله » . ودق الباب بقبضة قوية لكن لا أحد يرد ..

وسكت وعاود الدق لكن الصمت ظل مطبقا فجعل الرجل يقول في نفسه : « أعوذ بك من دعوة بلا رد ومن عين بلا نور » .

ووقف يتلفت . ومضت على ذلك فترة خالها في طول الدهر لكنه أحس كأن حركة وراء الباب فوقف جامدا .

وتحرك مزلاج ثم انفتح الباب حتى التصق بالجدار وجاءه صوت خيل اليه انه لم يسمعه لان عينيه كانتا مشغولتين بمطالعة الوجه الذي فتح الباب . وكان الصوت يقول بنبرة وانية مرتعشة :

ـ هل جئت ؟.. انني في انتظارك .

أخذ قلبه وخطا نحو الداخل ولم يرد بل تنحنح كأنما ليشعر من أمامه بأنه موجود . وشعر الطارق بضآلة شديدة على طوله العملاق . ولو ان العابد في ضآلة تكاد تبلغ الغاية . وراعه انه سبقه الى حيث يجلس مشيرا له بيده أن يقفل الباب ويتبعه . وراعه ايضا انه شبه مكفوف . خطواته وانية لا صوت لها كأن قدميه في حذاء من القطيفة .. رقبته من الخلف ناحلة وشعره محلوق كما اتفق وعوده يبدو كأنه صب في قالب مستطيل من فرط التساوي في النحافة .

وخيل الى الضيف انه يمانع نفسه التي تنازعه من ان يتقدم اليه ويَحمله على كفيه حتى يصل به الى مجلسه . لكنه ظل يتبعه في صمت حتى دخل حجرة ذات نافذة لها قضبان من الحديد تطل على الجزء المخرب من المبنى ، وقد فرشت بفراش من الصوف الخشن ذي لون واحد ، وفي ركنها مدفأة من النحاس وفي ركن آخر كتب وحشايا على الارض .

وجلس العابد وأمر ضيفه بالجلوس ، وعاد يقول من جديد بعدما استقرا على الارض :

ـ آه .. كنت بانتظارك ..

فتقدم منه وقبل كتفيه وجبينه ثم سأله :

ـ حقيقة انك كنت بانتظاري .. لكن من أخبرك انني ..

وقطع العابد عليه حديثه بضحكة طيبة ، وذقنه المدبب يلامس صدره :

ـ هذه تحية القدوم لكل من يدخل .. لان الذي يأتي الى هنا لا بد انه لاقى مشقة ، ولذلك فأنا في انتظار مستمر لكل من يطرق هذا الباب .. أهلا بك يا بني .. من اين أنت قادم ؟

ـ حديث طويل مثل الطريق يا سيدي ..

غمغم العابد :

ـ ما لك ضجرا قلقا مستعجلا نهاية الطريق .. لا يزال أمامك شوط آخر .

فتح الضيف عينيه في وجل ، فقال العابد :

ـ عندي دائما طعام لاثنين .. فهل تأكل ؟

ـ انا جائع يا سيدي الى ما هو اسمى من الطعام ..

ـ وهل أنت عابر سبيل ؟!

ـ لا .. كنت في (نصيبين) مقيما مع (عابد) هناك فلما حضرته الوفاة دلني عليك ، وقبلها كنت (بالموصل) ، وقبل (الموصل) كنت عند أحد رؤساء النصارى في الشام ، وهأنذا جئت لأقيم معك .

ـ مرحبا بك . (وابتسم) .. ولكنك جئت والشمس تغرب . ليت الله يمد قليلا في عمري .. الخيرات كثيرة .. ستزرع معي الخرائب في مؤخر الدار وتجني معي العنب وتنسج معي الصوف .. وتلتقي بالرواد . ولكن ايها الفارسي .. كيف حال كسرى ؟.

ـ صديق النار . يعبدها . ويأكلها . ويجري لهيبها في عروقه فيطفئه بالملذات هو وعدد كبير ممن حوله . وطبقة اخرى من الاغنياء ..

ـ أعرف . وليس قصدي هذا .. حاله ستتحول .. وانت كذلك ..

شعر الفارسي بخوف عندما سمع هذه الكلمة وان كان في قرارة نفسه يبحث عن التحول . ها هو ذا قد أمضى بضع سنين في خدمة الاساقفة والاحبار . لكنه يحس بالظمأ والجوع . زاد تطلعه الروحي بفعل ما لقيه من تناقضات ، فالعباد والاحبار الطيبون أوحوا اليه بشيء أبقى وأشمل وأعم . كاد القلب يلمسه وان لم يعرف موضعه . أما غيرهم ممن أكلوا أموال الناس بعد ان جمعوها للفقراء فقد وقفوا بقلبه على باب نظام جديد لم يكن في الحقيقة حلم الفارسي وحده بل كان حلم كل من له قلب . وقال في نفسه : « خطواتي وراء أشواقي فأين المستقر يا ربي ؟» .

وضحك العابد كأنه سمعه ، ورفع صوته قائلا للضيف :

ــ هل معك سيف ؟! أرني سيفك .

قدمه اليه دهشا . فتحسس العابد حده وهو باسم كأنه يتحسس وجه ابنه الذي غاب عنه وعاد . ثم رده اليه قائلا له :

ــ لقد تغيرت أرضه وتغير غمده وأكبر الظن ان هذا سيحدث لصاحبه .

ــ انني خائف يا سيدي ..

ــ من نفسك التي ستفقدها او من نفسك التي ستجدها ؟ قص علي حياتك في بلادك .. ففعل ...

***

ولما فرغ الفارسي من قصته بدا عليه من الجهد والتأهب ما أحس به العابد . كانا جالسين على حشية مشتركة كبيرة محشوة بالقش . فتحسس العابد كتف الشاب العريضة وقال له :

ــ قم بنا لأريك معالم المكان ..

ونفذا الى الشمال من بقية باب في نهاية دهليز طويل تفوح منه رائحة رطوبة . كأنما كان في قديم الزمان مدخلا لسجن . وعند الباب من الشمال تقع رقعة كبيرة من الارض . منبسطة تقريبا وفي نهايتها وأرفع مكان منها بئر عميقة وحبل ودلو . وبجانب كل هذا بعض أدوات الزراعة. وبعض شجرات عنب واشجار من فواكه وخضروات لا تجد من يرعاها .

كانا يجولان معا في هذه المزرعة التي تكاد تبلغ في مساحتها بضعة

فراسخ مربعة . العابد امامه وهو يتبعه كأنه يدله على طريــق . وأحس الفارسي برغبة شديدة في أن يعمل بهذه الادوات مثل رغبته تماما في أن يصل الى الحقيقة المطلقة التي يقطع في سبيلها أركان الارض . ولم يلبث الرجلان ان وقفا الى جوار البئر وجاء صوت العابد وانيا :

ـ هلم .. اسق هذه الخضروات وعد الي في الداخل لنتناول طعامنا معا . واذا رأيت انك لن تخلص من عملك قبل دخول الظلام فتوقف عند غروب الشمس . وستجدني قد أوقدت المصباح وأعددت العشاء يا ولدي..

ثم تركه وسار يتدحرج . خطواته لا تسمع وهيكله لا يكاد يرى . وتبعه الفارسي ببصره وخيل اليه انه في حلم .

هذا الرجل الذي طبقت شهرته الآفاق تقتحمه العين لاول نظرة ، لكنه ان يتكلم تغير الموقف .

ومال الفارسي على الماء واخذ ينزح . وكان يتأمله وهو يجري في لجج فضية متتابعة نحو ارض المزرعة الصغيرة التي تقيم أود النفس الكبيرة وأخذ يوازن بينها وبين مزرعة ابيه التي يملؤها العبيد . ثم مال يسأل نفسه وهو يحملق في أعماق البئر .. « لماذا لم يرحلــوا كما رحلت ؟؟ فمزرعة صغيرة بها حر واحد أخصب من مزرعة كبيرة سكانها عبيد » .

وأخذ يتصور أفواجا من الناس قد ملأهم العزم الذي ملأ قلبــه خارجين من أرض كسرى ليتركوه وحيدا فيها .. « عندئذ لن يستطيع كسرى ان يكون الظالم لان الظلم لا يعيش الا على المظلومين » .

وتنهد وزقزقت فوق رأسه طيور لم يسمع مثل صوتها قبلا . وفرغ

من عمله والشمس لا تزال على مقربة من الافق . فعاد أدراجه .. قطع الدهليز الطويل مرة اخرى في ظلام لا يخيف ووصل الى حجرة العابد . فلما أحس وقع خطواته من بعيد هتف :

ــ هل تعبت ؟

ــ بل انتهيت من العمل .

تنهد الشيخ :

ــ قوة . نفحة من قوة الله .. حسن .. تعال .. مكانك الى جانبي فان الليل هنا شديد البرد . ولكن قبل ان تجلس ناولني هذا الغطاء الصوفي .. ونشره العابد امامه فاذا به قسمان ملفوفان بعضهما في بعض بحيث يمكن فصلهما ان وفد عليه وافد ليكون غطاءين .. وفصلهما الفارسي وقال له الشيخ : هذا غطاؤك ..

كان نور مصباح ينتشر في المكان هادئا . ورائحة لحم تنبعث من قدر على نار في ناحية من الدهليز الآخر . وقام العابد فجهز عشاء بنفسه من اللحم والخضروات والفاكهة . ولما قال له الفارسي : اترك لي أمر خدمتك .. قال له : سيكون كل شيء بيننا قسمة .. العمل والثمرة .. لكن لن أبذل اكثر من طاقتي ولن تبذل أكثر من طاقتك .. وسترى اني آكل من زرع يدي وألبس من صنع يدي .. العمل والعبادة شيئان مباشران في نظري لا واسطة فيهما .. تقدم وخذ طعامك .. ومنذ غد سنزرع معا وننسج معا ونعبد الله معاً .

لم يأكل الفارسي طعاما اشهى من هذا .. لم تكن الاواني لامعة . لا فضية ولا ذهبية كالتي تركها في أرض فارس لكن طعامها كان غذيا .

ولم يكن الخبز طريا ولكنه طري بالماء ثم وضع على النار فصار ذا نكهة، وجعلا يتحدثان وهما يأكلان ..

قال الشيخ :

ـ سترى هنا ناسا يمرون اثناء عبورهم علينا .. وستسمع أحاديث جديـدة ..

فسأل الفارسي :

ـ لكن يا سيدي . ما الذي أتى بـك الى هنا في هذه البقعـة وحدك ؟؟

ـ آه . ان لذلك قصة سوف تعرفها . لكن علينا قبل ان ننام ان نجلس ساعة الى المنسج فهو مصدر رزق لي .. هلم معي ...

وفي حجرة اخرى كان منسج وخيوط من الصوف شدت للعمـل كلها من لون واحد . والى جانب المنسج قطعة صغيرة فرغ منها . وعرف الفارسي انها معدة للبيع . غطاء صوفي من لون واحد خشن غليظ . يمكن ان يكون في كوخ أحد الرعاة او الفلاحين .

وانكب العابد على المنسج وجلس الفارسي يراقبه . خيوط (السدى) ممدودة وبينها يجري العابد خيوط (اللحمة) بأصابعه المعروقة بلا أدنى مشقة وعيناه قريبتان جدا من الخيوط كأنه يقرأ عليها مكتوبا .

وفي جو المكان رائحة صوف ورطوبة وأرض مزروعة وتوابـل وعرق . لكن هناك رائحة تغطي كل هذا وتطفو عليه هي رائحة (الفكر والتأمل) . كان الصمت الذي يغلف الاشياء مهيأ لان ينطـق بحكمـة

لم تسمعها البُشرية من قبل .

واحس الفارسي باستقرار قلبي لا مثيل له . وجعل يوازن بين هذه الاقامة وما سبقها من اقامات فشعر بما يشعر به النائم حين ينقلب تلقائيا على الجنب الذي يريحه بحركة حلم وهو لا يدري .

تنهد الشيخ وقال للفارسي :

ــ كنت على وشك أن أخرج صباح الغد لأبيع هذا الغطاء ، فعليك اذن ان تفعل ذلك في السوق القائم على مقربة من المدينة .

ــ أمرك يا سيدي ..

قال العابد مبتسما وهو يضغط الخيوط :

ــ هل أصف لك الطريق .. ان مثلك لا يضل ..

ــ سمع الله منك .. لكني أود أن اسمع ..

ــ قصتي ؟؟

ــ ان شاء سيدي ..

ــ تعال اولا واعمل بيدك . هاتها . مرر الخيط هكذا ثم هكذا ثم اضغط .. وباستمرار العمل نحصل على غطاء .

وبعد ساعة من الزمن عادا الى الغرفة الاولى ..

كان الجو قد تغير . وبدأت ريح لينة تحف بالاشجار . وأوقد الفارسي لهما مدفأة وجلسا امامها . وشرع العابد يقول :

ــ أنت خير مني ايها الشاب . (فعض الفارسي شفته استعظاما

واستنكارا) لا تعجب فأنت قد تركت أرضك وأهلك والمراكب والعبيد وخرجت تبحث عن الحقيقة لانك لم تجد الحقيقة في شيء مما حولك . لم تجدها في بريق الذهب ولكنك ربما ستجدها فوق رأس نخلة وانت تحصد أو تحت اقدامها وانت تزرع . وستجد تلك الحقيقة المطلقة الكبيرة التي هي الله او الطريق اليه ــ ستجدها في الحب لا في الحرمان . ستجدها في ابن ترعاه لترعى غيره من عباد الله وفي زوجة تحبــك وتخلص لك وتخلص لها . وفي هذه الارض تزرع الفضائل . الارض التي لا تلغي من الانسان شيئا بل تعترف به طينيا ونورآنيا ويكون في كلتا الحالتين عبدا طيبا من عبيد الله .

وناوله الشيخ قدحا من شراب دافىء وأخذ لنفسه قدحا .. لاحظ الفارسي ان أصابع الشيخ ترتجف وان ذكرى انسانية عميقة استيقظــت في داخله فعرف ان الطريق الى التجرد وعر .

وساد صمت قدسي بين اثنين يسأل كل منهما صاحبه ويدله في وقت واحد ــ عن الطريق الى الله .

وبعد رشفات من الشراب الدافىء الذي ملأت رائحته المكان ابتسم العابد وقال :

ــ اليك اذن قصتي التي سألني عنها ناس كثير ولكنني لم أقصها الا على قليل من الذين ارتاح اليهم قلبي .

« كان أبي صيادا لم يبحث قط عن لؤلؤة . (وتبسم) كان يصيد أردأ أنواع السمك . وكان يحب كل شيء في الدنيا حبه لذاته . فكان يحب الصيد الكثير لكي يجعله أميرا على الصيادين . ويحب امي لانهــا

صورة منه مع اختلاف الجنس . ويحب البحر لانه مزرعة لرغباته . ويحبني أنا ابنه الوحيد لانه يريد ان أرث عرش رغباته .

أما أنا فكنت أحبه بلا تفكير لانني كنت ابن خمسة عشر عاما .

وفي يوم من الايام ركب ابي قاربه ومعه أمي ونزلا للصيد معا في اسبوع امتنع فيه الناس عن نزول البحر . وانتظرناه فلم يعد .

ودعنا من شماتة الناس فيه يا بني فلو كان عضوا من الجسم ما شمت الجسم فيه . لكن القصة قصتي ..

صرت انام في الكوخ وحدي . وكان بعض طيبي القلوب يواسونني بالسهر معي حتى أطلب اليهم العودة . لكن بعد أن يعودوا أحس بأنني على وشك ان أسمع خطواتهم وأشم تلك الرائحة المألوفة التي تنبعث من ملابس الصيادين . وتطول فترة الاحساس هذه دون ان يقطعها شيء. انتظار عجيب نهايته لا شيء . فأحس وكأنني سقطت من أعلى جبل فأنهض من الكوخ وقد أخذني الدوار وقد فقدت الوعي ، وانما أسير هكذا كما يمشي حيوان تقوده خطاه ..

وفي كل ليلة يحدث لي هذا . وفي كل ليلة أجد نفسي على شاطىء البحر وحيدا تنازعني الريح ثوبي وتبدد ندائي وتكاد تخطف سمعي من صفيرها في أذني . غير اني كنت أقف وقد سددت أذني بابهامي يدي ، وصرت أصيح ونصف نظري الى السماء ونصفه الآخر الى البحر . هل تدري ماذا كنت أقول ؟ كنت اقول : « ان كنت قادرا بحق يا الهي فلا تتركني وحدي . أعد الي أبي وامي . سأحضر هنا كل ليلة حتى تفعل » .

واتسعت عينا الفارسي من الدهشة وكانت عين العابد مغرورقا بالدمع . وسمع الشيخ تنهد الشاب فتبسم ومد يديه المعروقتين الى بقية الجمر ليستدفيء . ثم استطرد :

ـ كانت الرعدة تملأ جسمي عقب كل نداء . وكنت اكرره بضع مرات ، حتى أحس بقلبي انه فعلا قد وصل الى الله وانه قد أخذ في تدبير الامر فأعود الى الكوخ شبه محموم .

لكنني في الليلة التالية لا ألبث أن أحس بالشوق . وكان شوقي يزداد ليلة بعد ليلة والخوف بنفس النسبة . حتى شعرت انني أتمزق .. شيء يدفعني وشيء يردعني .. كلاهما قوي .. وانا صغير . فكنت أخرج من الكوخ باكي العينين مرتجف الاوصال لأذهب الى البحر وأنادي من كل قلبي .

قال الفارسي في نفسه : « لا بد ان يحدث شيء فهو أرحم من ان يدعه يتمزق » . وعندئذ جاءه صوت العابد مسترسلا :

ـ لم يرني احد ولم يسمع ندائي احد الا الله . هو وحده الذي يدرك معنى الهفوات وبميزانه الذي لا يحيف يعفو عن السيئات ، فلو سمعني الناس لقالوا انني مجنون ..

لكن المدى طال وانا أفعل ما أفعل ، كلما سقطت تحت وطأة الانتظار الذي لا يعقل . ثم كانت الليلة الاخيرة . كانت نشيطة الريح فلم أبال . شديدة البرد فلم أبال . كثيرة المخاوف فلم أبال . كان كل هذا باطلا والحقيقة هو ما أريده ، هو انني سأطلب من الله ان يعيد الي ابي وامي

ما دام قادرا ..

وقفت على صخرة لأحس انني مرتفع . والدنيا ظلام والبحر متتابع الموج . وجعلت ابهام كل يد في اذن ونظرت الى البحر وهتفت بأعلى صوتي : « ان كنت قادرا بحق يا الهي فلا تتركني وحدي .. أعد الي ابي وامي .. سأحضر هنا كل ليلة حتى تفعل .. » .

خيل الي ان صدى الصوت ملأ المكان حتى رددته كل الكائنات فهو يعود الي من أفواهها من بعيد وقريب . من الجبل والشجر والموج والقوارب المقلوبة والرمل والسحاب . ثم صمت كل شيء فجأة .

ورأيت أبي وأمي يخرجان من الماء يخوضان الى الشاطىء كأنما كانا يستحمان . لكنهما عندما اقتربا مني والماء يغطي نصفهما الاسفل ونصفهما الاعلى عريان ظاهر ، سألاني معا بوجه غاضب وفي نفس واحد كأنما يلقيان شيئا حفظاه :

ــ هل تريدنا حقا ؟

فقلت باخلاص :

ــ نعم .. والا لما فعلت هذا .. لقد سمع الله ندائي ..

ــ انه يسمع كل نداء ويعفو عن الجاهلين . هل تود ان نخرج اليك حقيقة ؟

فأشرت بكفي ان « نعم » لان ريقي كان جافا ولساني لا يستطيع الحركة .

فتحركا نحوي فاذا بي أرى ما أصرخ منه وأغمض له عيني .

فقد رأيت نصفهما الأعلى كما عرفته ونصفهما الاسفل على هيئـة الاسماك .. فصرت ادعو الله بأعلى صوتي .

« ان كنت قادرا بحق يا الهي فأعد ابي وامي الى البحر فلا أستطيع ان أراهما يموتان مرة اخرى على الارض كما يموت السمك . ويكفينا ان نفقد الاحباب مرة واحدة في العمر » .

فسبحا في البحر عائدين . وشهقت ..

كنت حين شهقت في كوخ أحد الصيادين . التقطني ذلك اليوم من جنب الصخرة وانا أصارع الحمى . وكان يسقيني شرابا دافئا مضافا اليه بعض أعشاب الجبل .

ومنذ ذلك اليوم وجدت في نفسي شوقـا الى ادراك الحقائـق الاساسية في الوجود . فتعلمت من الاحبار الذين رحلت اليهم مـا تعلمت .

ــ ولم تتزوج يا أبي ؟

ــ ليس عن قصد . فقد ملئت حياتي بالعجائب .. أوه .. ألا ترى اننا قد قطعنا وقتا طويلا من الليل وأنت متعب من الرحلة ، آن لنا ان ننـام يا بني ..



عاد الفارسي من السوق بعد أن باع الغطاء الذي فرغ العابد من نسجه وبعد ان اشترى من ثمنه صوفا جديدا ومطالب اخرى .

كان العابد في الحقل يعمل في السقي والعرق يتصبب منه . عندما وضع الشاب ما اشتراه ذهب اليه وخطف الحبل منه وشرع يسقي .

وجلس العابد على صخرة غطاها الطحلب ونمت حولها اعشاب ذات أزهار وأخذ يمسح بكميه وعلى فمه ابتسامة من يعرف سر الهموم التي لونت وجه الشاب ، وقال :

ـ ماذا رأيت في السوق يا فارسي ؟

ـ رأيت ناسا يا سيدي ..

ضحك :

لا بد ان يكونوا ناسا .. فالله واحد .

انتفض الشاب حتى سقط الحبل من يده وهوى الدلو الى قاع البئر . فمد الشاب كفيه الى العابد كأعمى يتلمس الطريق وعلى ملامح وجهه دلائل البكاء . وقال هامسا :

ـ أبي .. ذلك ما كانوا يتنازعون فيه في السوق .. النصارى .. اختلفوا في أمر دينهم وعادوا مفتونين فيه ... وهناك ناس عادوا الى الأوثان لان الاحبار والرهبان أقفلوا أبوابهم وأفواههم على الحقائق وتركوا الناس يموجون .. ابي ..

فرد الشيخ في يقين من يعرف أمراً :

ـ لا تجزع . انزل الى قاع البئر وانتشل الدلو .. لكن .. انتظر حتى اربط في وسطك حبلا فاذا أحسست ضيقا فهزّ الحبل لأرفعك الى أعلى ..

هتف الفارسي في نفسه : « والا لماذا جئت اليك .. جئت لأهز الحبل فقد بلغ بي الضيق منتهاه ولكي ترفعني الى اعلى » .

ثم أخذ الفارسي يسقي وأخذ العابد يتكلم :

ـ ولندع أمر الذين اختلفوا في السوق لله فهو عما قريب سيتولى أمرهم . وسأحدثك عن بقية قصتي :

« احترفت الصيد بعد أبي مدة ولكنني رأيت ان السمك أرخص ما يصاد . كنت أحس ان في قاع البحر لآلىء ، وكنت اسمع عن صيادي اللؤلؤ في البحار الدافئة ، فتمنيت ان أصل اليها ، حتى دفعني الحب الى أن أقف على ميناء أزمير يوما ما وأسأل عن سفينة تقصد نحو هذه البحار ، ونظر الرجل الذي أحدثه الى قامتي الضئيلة وقال لي :

ـ هل تريد ان تتعلم صيد اللؤلؤ ؟

فقبلت يده وصدره وكتفه ورأسه وهو يبتسم لي ، وكان ضخم الجسم متين البنيان كأنه جندي روماني خلع لتوه عدة الحرب . فاذا به يقهقه ويرفعني بين ذراعيه مداعبا مثل دمية صغيرة ..

(الفارسي يستمع والخضروات تنتعش بالماء وطيور مختلفة الانواع على احدى اشجار اللوز مائلة بأعناقها تنظر الى بعيد) .

وعندما رفعني أحسست ان السماء قريبة مني . ولما أنزلني الى الارض أحسست بثقل غريب في جسمي كأنه زاد قنطارا . وبعدئذ عاد يسألني :

ـ هل لك أحد ستستأذنه او لك أحد ستهرب منه ؟

فأكدت له انني لا أحد لي فأستأذن منه ولا أحد لي سأهرب منه ، ولكنني (وتدله صوته) لي أحد أبحث عنه ..

فضحك الروماني وقد أنست به .

وأقلعت السفينة من الميناء والليل جاثم على الجزيرة وانا صبي احمل الى البحارة والنوتية ما يشاؤون وانقل ما يشاؤون من مكان لمكان. غير اني أحسست بالخوف بعدما غابت الارض عن عيني عدة ايام . ولم أعد أرى في النهار الا نفس الحيتان وفي الليل أسماكا تضيء كلهب يسبح . وكنت في كل ليلة أحس ان جسم أبي وامي تحت السفينة . انهما في هذا البحر بلا مراء . ليسا سمكا كما صور لي خيالي المحموم لانجو من الشوق بل طينا ذاب في الماء .. أحسست بهما كأنهما معي . وهكذا يمكن ان يحس المرء بالكائن الاعلى .

ثم سكت الشيخ ومد يده في صمت بعد ان قام عن الصخرة وأمسك بالحبل ليسقي بدل الشاب فمانع ، لكنه شده منه بعنف عجب له الفارسي، واشار الشيخ اليه أن يجلس هو حيث كان يجلس على الصخرة بين الاعشاب .

وأخذ العابد يسقي ويحكي .. ضحك قبل ان يبدأ :

وفي ضحى يوم أعلن الرباز ان عاصفة في طريقها الينـــا . وغطى السفينة هرج ومرج . وأخذت انا انظر الى البحر .. وكنت قد علمت أن البحار خدعني وان السفينة ليست في الطريق الى مصايد اللؤلؤ وانما هي في طريقها الى البندقية .. لكن عندما توقعنا الغرق قلت فى نفسي « لا شك ان بحار الدنيا في الغرق سواء .. » .

وانقلبت السفينة ، وكنت أجيد العوم . والتقطت وانا على سطح الماء أحد الصناديق الكبيرة وركبت عليه . لكنني في طول هذه الفترة التي كنت فيها غريقا حيا كنت لا أذكر الا شيئا واحدا ، هو وقفتي على الشاطىء ودعائي اليه أن يعيد الي « أبوي » الغريقين ..

وقلت في نفسي : « هأنذا في الماء الذي ذابا فيه ... وسأذوب بدوري .. أليس هذا لقاء . وربما التقينا في بطن حوت . أليس ذلك خيرا من بطن دودة ؟... »

ورأيت الله على ظهر كل موجة ومن خلال كل سحابة ، الى ان يسر لنا من نجانا وحملتنا سفينة كانت في نفس الاتجاه .

وسكت العابد ومسح عرقه بكميه :

ــ قم بنا لنتغدى ونستريح ..

* * *

وفي المساء جلسا الى المنسج ..

أخذ الفارسي يعمل وكأنه تعلم منذ شهور : « يد الله لا تكف عن العمل فلنكن صورة منه » ، والشيخ يحملق بعينيه الكليلتين ويتبسم ثم قال له :

ــ لكن السفينة التي نقلتنا كانت ذاهبة الى احد الموانىء الغربية ، ولما نزلنا هناك سمعت الناس يذكرون اسم روما . ووقفت حائرا لا ادري ماذا أصنع وأنا شاب قد تجاوز العشرين ، وسألني أحدهم عن سبب رحلتي ؟ فلما قلت له : انني كنت طامعا في أن أكون صيادا للؤلؤ قهقه وصفق . وسلموني لحرس الميناء ذلك الذي رحلني الى مكان بعيد عن الميناء بعدة فراسخ واقعا على سفح جبل مليء بالرهبان . فاتخذوني خادما لهم .

كنت أجلس مختبئا على مقربة من سمرهم فرأيتني أعشق ما يقولون. كانوا يتناولون فلسفة القدماء ويتناقشون في التوراة والانجيل كلما اجتمعوا لطعام أو حديث . وأحسست لقربي منهم بما هو نابع من ذاتي . أحسست ان كل الذين « شكوا » أو « رفضوا » او « عددوا » لم يهتدوا . وان « عقل الكون الطهور » لا بد ان يكون واحدا ، وما دام « عقلا » فلا بد ان تكون الوحدانية من صفاته .

ولما رأوني أحوم حول مجالسهم شكوا في مدى معرفتي ، فلما سألوني أجبتهم . ولما ناقشوني ناقشتهم فتبناني أكبرهم وقبلني وهو يقول لي : « يا راهبا خارج الدير » . وقد تعلمت منه الكثير .

عندئذ توقف الفارسي عن العمل ونظر للشيخ قائلا له :

ــ لقد سئمت في ارض فارس من صراع اله النور واله الظلام

فرحلت أبحث عن الحقيقة وأبكي عيني اليوم يا سيدي وأبي اني رأيت في السوق رجلين من النصارى يتصارعان . أحدهما يبيع خبزا والآخر يبيع نبيذا . وقد ترك كل منهما بضاعته واعتدى على الثاني . فمزق بائع النبيذ خبز صاحبه وأراق بائع الخبز نبيذ صاحبه . فاصطبغ الخبز بالنبيذ كأنما أريق عليه دم ..

وعندئذ أطرق العابد . وساد صمت ، ثم سمع دق على الباب ... دق متواصل ملح قلق . فقام الفارسي وفتح . كان يحمل معه مصباحا ، وعندما وقع وجه الطارق على وجهه الشاب تراجع الطارق وهو يهمس :

ـ هل أنا مخطىء الى هذا الحد ؟

وتلفت حوله . يريد ان يقول : ليس هناك صومعة اخرى .. فسارع الفارسي قائلا :

ـ لا .. انه هنا .. وانا ضيف عنده .. ادخل .

كان رجلا في منتصف العمر : تبدو عليه هيئة التجار ، وعلى سحنته الحزن والثورة ، ودخل الى العابد في حجرة المنسج والفارسي ينير الطريق بالمصباح . فلما وصل اليه جلس متهالكا وأخذ يتكلم وهو هائج :

ـ أفتني يا سيدي ، فاني سأزل . اني حزين القلب والعقل معا .

رد العابد في اطمئنان كأنما ليهون الامر :

ـ معا ..؟؟ هذا عجيب ..

ـ معا يا أبي .. لقد جئت اليك من الموصل ، حيث هناك يشتهر اسمك .

ــ مرحبا بك .. لكن كيف تبكي ؟

ــ ابني .. مات في مصر .. ذهب الى هناك يحمل من المنسوجات ليتجر فيه فقتل .

ــ لقي ربه ..

ــ ان هناك فتنة يا ابي تقوم حول عبادة العذراء .. نسينا حقيقة ديننا . من هذا الذي سيضع الحد لهذا كله يا أبي ؟؟

قال العابد في همس :

ــ السماء .. (ثم اشار للفارسي) وهذا شاب آخر يضرب في أنحاء الارض حائرا . يا بني .. أنتما الاثنين . لن يدع الله عباده هكذا .. لقد أيقظ المسيح في أتباعه الضمير الانساني : « ملكوت الله فيكم » لكنهم فتنوا .. وها هي ذي يا بني .. أنتما الاثنين تريان أن شريعة بني اسرائيل قد فقدت قيمتها في هذا الزمن .. بليت . ثم يا بني أنتما الاثنين .. ها أنتما تريان ان قوانين روما الارضية قدنخرها السوس كما نخر عظام هـذه الدولة ، والمسيح يا بني انتما الاثنين .. لم يأت بشريعة أرضية . « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .. لا تبك ايها (الموصلي) فهـذه ارادة (الواحد) ... وأنتم في هذه الايام مفتونون .. والاحبار يعلمون ان الله لن يدعكم هكذا ولكنهم يكتمون الحق ، لا تبك ايها الموصلي وخذ بيد الفارسي وتعالوا للعشاء ..

ثم أكلوا وناموا .. رقد الثلاثة على حشية من القش وطرحوا عليهم الغطاءين اللذين كانا واحدا ملفوفا .

وفي الصباح أحس الموصلي أن ابنه هناك بانتظاره في دكانه الذي يبيع فيه . فقبل العابد والفارسي ورحل موقنا بأن نورا جديدا لا بد ان يكتسح هذه الظلمات .

- ٤ -

وبعد بضعة شهور قال الفارسي للعابد :

ـ وداعا يا أبي ، لقد اشتريت بقرة وعـدة رؤوس من الضـأن وسأعيش وحدي في كوخ على مقربة منك لأخلي مكاني لتلميذ جديد . سأرعى وأحلب اللبن وأجز الصوف وأغزله وانسجه .. علمتني كيـف أسعى الى الله . لكن .. انني .. آه ..

رد العابد في ذبول :

ـ سأقول ما تريد ان تقول : انك ستشعر بالحنين ولو انك ستكون قريبا مني (وتبسم) لا تحزن . فأعظم أنواع الحنين هو ما يخلقه القرب. ومن ذلك حب الله ، آه .. ها أنت يا فارسي قد تركت أهلك منذ سنين فكيف حال حنينك الى من بعدت عنهم ؟

وعندئذ أطرق الشاب . كان الحنين اليهم صدى يتراجع مثـل

همهمة الهرابذة في معابد النار لكن حنينه اليوم شديد الوقع .. نقرات على شغاف القلب في انتظار مصدر النور وأصل الحقيقة وما لقاء هـذا العابد سوى ارهاص لما يراد .

رد الفارسي وقد رفع رأسه وصوته :

ـ انني يا أبي أشعر وكأنني والد لشاب مات . وأنا الوالد والشاب في وقت واحد . كبرت وخرج مني انسان جديد بعدما مات في انسان . كما تولد الخطوة من الخطوة فتحيي الثانية وتنتهي الاولى . والسير الى الامام يا أبي .. الى منبع يشتـاق قلبي لرشاشه . شربة واحدة منه تطفىء الظمأ الى الابد .

همهم العابد وكأنه يخاطب شخصا بعيدا :

ـ ستراه ..

واستطرد الفارسي :

ـ ها نحن أولاء في كل صقع ننتظر شيئا . واذا كانت الام تعرف معنى مناغـاة ابنها الرضيـع وتستجيب ، فالله أحرى أن يعرف مناغاة قلوبنا ..

ـ صدقت ..

ـ وداعا يا أبي ..

وأخذه الشاب بين حضنه . وقبل جبينه ولحيته . ثم بكى وانصرف.

ومنذ هذه الليلة وهو يستقل بحياته يرعى بالنهار ويغزل بالليـل

وينسج ويبيع ويشتري ما يحتاج . ويتردد على العابد كل مساء فيقـوم بحاجاته قبل ان يعود الى بيته ويستزيد من المعرفة . يحس يوما بعد يوم ـ ولو انه مقيم في عمورية ـ انه يسافر ، الى أين ؟ ذلك ما يحسه قلبه ولكنه لا يستطيع ترجمته .

وفي احدى الليالي دخل الفارسي على الشيخ فألفـاه في فراشـه والليل مخيم والمصباح لم يوقد . فعجب الشاب لما حدث لكنه عرف ان الرجل قد أتعبته السنون . فأشعل النور وجلس تحت قدميه على فراش القش .

جاءت من العابد ابتسامة وانية . وقال للفارسي :

ـ اما آن لك ان ترحل ؟

فرد في عجب :

ـ الى أين يا أبي .

ـ انك لم تصل بعد . لن أخافه عليك من أشواقك ، فنارها نور . ستبيت في الكهوف وتقيد أطرافك وتبقى روحك طليقة (وحملق فيه) لهذا خلقت يا فارسي .

تحسس الفارسي قدمي العابد . وسأل متوسلا :

ـ ألقيت الخوف في قلبي ..

ـ لا .. لا تخف فقد جاء الأوان وتناقلت الركبان ما عرفه الاحبار وأنكروه . هيه .. أيها الفارسي . ان نهايتي قد قربت .

ـ ماذا أقول يا ابي .. ليت نفسا رديـة تفدي نفسـا زكية .. اذن

فدتك نفسي .

تبسم العابد وقال :

ـ ستطفىء ظمأك فلا تخف يا فارسي .. عينـاك تسألان الى اين ستذهب بعدي وان استكبرت أمر موتي ، لكني يا بني لا أعرف أحدا على مثل ما كنا عليه . آمرك ان تأتيه ولكن .. اسمع جيدا .. قد أظلـك زمان نبي يبعث بدين ابراهيم حنيفا يهاجر الى ارض ذات نخل بين حرتين ، فان استطعت أن تذهب اليه فافعل .

*

كاد الفارسي يصرخ : « آه ماذا تقول يا أبي ؟ » .. وأطرق حامـلا ذقنه فوق كفيه وهو جالس على حشية القش عند أقدام العابد . وعندئذ شعر بشيء جديد . شعر بأن معالم هذه الارض غريبة لا تطاق ، وبلمسة من الحنين الى الذي حدثه الشيخ عنه . وأخذ يتصور النخل والحرتين . وتذكر توا ما قاله له العابد ذات يوم حين كلمه عن الحقيقة : « لم تجدها في بريق الذهب ولكن ربما ستجدها فوق رأس نخلة وأنت تحصد أو تحت اقدامها وانت تزرع .. »

ثم أخذ يقول في نفسه : « من ذا الذي يدلني على هذه الارض ؟ لم تعد ارض اللوز والاعناب وطنا لروحي .. آه يا ابي .. ليتني استطيع حملك طوال الرحلة القادمة وأنت فوق رأسي لتهديني الى هذه الارض . لكن .. ما دامت خطواتي وراء أشواقي فانني لن أضل » .

وتنهد . وعندئذ سمع صوت الشيخ فجأة يقول له بقوة جديدة :

ـ يا فارسي ، خذ المصباح وقم معي فانني اشعر انني الآن أحسن حالا ، تعال الى حجرة المنسج .

وجلسا هناك وأخذا يغزلان معا . وعادت الى الشيخ حيوية طارئة كذلك الصحو الذي تفجؤنا به السماء بعد الغيوم . وأخذ يتحدث وأمر الشاب ان يصنع له شرابا دافئا ووضع عليه بعض الاعشاب واخذ يشرب . ثم قال للفارسي وهو يبتسم :

ـ كأنك غريب .. أليس كذلك ؟

فأطرق الشاب .. واستطرد العابد :

ـ أنا اعرف سرعة القلب حين يركض ، كحصان عربي . يركض الى هناك (واشار بعيدا) وهو هنا (وأشار الى صدره) مخلوق غريب هذا القلب يا بني .. فيه كل سر .. هو ابو الجوارح .. فيـه العـين والاذن والأكف والأقدام (وضحك) يرى ويسمع ويعمـل ويجري .. هيه .. أليس قلبك الآن في ركض ؟ لا تخف يا فارسي . ستلقى هذا النبي .. ستلقاه باذن الله .

قال الفارسي في سهوم وتبتل وخضوع :

ـ دعني يا أبي ، كفاني ما أحس الآن فلا تشعل نار شوقي .

رد الاب وكأنه لم يسمع شيئا :

ـ له آيات لا تخفى .. فهل تحب ان تعرفها ؟ ثم همس اليه وسكت. لكن .. بقيـت على شفتيه ومضـات نور .. كآيات لا تخفى للحـادث الأعظم .

همهم الفارسي :

ـ ماذا قلت يا ابي ؟ ان رأيته عرفتـه ؟؟ ان رأيته عرفته ؟ كيف أعرف ما هو فوق طاقة البشر ؟

ـ آه ... (وهكذا تأوه العابد في شبه احتجاج) لا .. لن يفتن الناس في أمره كما فتن النصارى .. بشر يوحى اليه بشر مكمل .. سيعرفه قلبك يوم تلقاه يا فارسي .

وعندئذ تلعثم الفارسي بسؤال هم أن يلقيه لكنه ما لبث ان عـدل عنه . أحس الشيخ به فهتف يسأله :

ـ قل ولا تخف ..

ـ لست أريد شيئا .

ـ اسألني قبل ان تسأل عني فلا تلقاني ..

ـ أوجعت قلبي .. كنت أريد ان اقول لسيدي هل تتمنى ان تلقى هذا النبي ؟

وعندئذ استنار وجه الشيخ وترك المنسج واعتمد على ذراعه وهـو متكىء على خشبة وقال له :

ـ لقد لقيته فعلا بايماني مقدما بظهوره . وعبدت الله الذي سيدعو اليه . لكن بقية ايامي وقواي لن تمهلني حتى ألقاه .. أما انت يا فارسي ـ ان كنت موقنا أني أسديت اليك شيئا ـ فاذكرني عندما تتملى عينـك طلعة أكمل انسان يحلم برؤيتها طائفة من البشر قبل ظهوره . وسيحلم برؤيتها طائفة أعظم تراه في كل حق ونور .

وعندئذ أكب الفارسي على يدي الشيخ مقبلا دامعا . غير انه مـا لبث ان أخذ يده ليعتمد عليها وعاد به الى غرفته حيث سينام على حشية القش ، وأمره بأن ينصرف ويعود اليه في الصباح .

وقبل مشرق الشمس كان الفارسي في الطريق الى العابد ، ورذاذ من المطر يبلل الارض ، وعلى رأس الفارسي غطاء من الصوف نسجه بنفسه وفي يده وعاء من الحليب .. من بقرته .. حمله الى السيد العابد .

وكان الفارسي وهو في الطريق يتأمل معالم المكان فلم يجد شيئا يعرفه . خيل اليه ان كل معلم قد غير موضعه . فالكنيسة الصغيرة القديمة لم تعد فوق التل كما عرفها اول يوم منذ سنين يوم جاء الى هنا . والكهف الكبير لم يعد هناك بل في مكانه انبثقت اشجار . وهذه الاكواخ كأنها نبتت فجأة على السفوح . وليس هناك مرعى أخضر . وكأن البقر والغنم ذئاب تبحث عن فرائس . « ما هذا ؟؟ » هكذا سأل الفارسي نفسه .. « هذه الارض ليست وطن القلب منذ اليوم .. لقد اصبحت غريبا » .

وواصل السير . ورذاذ المطر يبلل غطاء اناء اللبن حتى اذا ما قارب باب العابد رآه مفتوحا ملتصقا تماما بالجدار كأنه يقول للناس : ادخلوا ..

ودخل . أولا الى حجرة منامه ، فلما لم يجده فيها تفاءل . وكانت هناك نار خابية وعلى الجمر وعاء صغير تفوح منه رائحة اعشاب غريبة تغلي مع الماء . والغطاء منكوش مما يدل على ان صاحبه رمى به .

ونادى . لم يجبه صوت . فوضع وعاء الحليب على النار الى جنب وعاء الاعشاب ورجح ان يكون العابد في المزرعة ما دام انه نادى فلم يرد عليه . فاخترق الدهليز في نصف وعي . ولكنه عندما نفذ منه الى الباب المؤدي الى المزرعة رأى المطر يشتد . فنادى . ثم سار حثيثا . وذهب الى

البئر فاذا الدلو مقلوبة . وكل شيء يدل على التوقف . ونادى .. وتفقد المكان . ثم ألقى نظرة على هذه القصعة الخضراء الصغيرة التي حبا فيها قلبه حتى وصل الى الله . ثم نظر الى السماء الرمادية التي تبشر بشيء .. أي شيء .. ثم هرع مسرعا الى الداخل .. مر بحجرة نومه فاذا باللبـن يفور ويراق على الجمر فرفعه ووضعه على الارض ثم رتب الفراش . لم يكن هذا وقته لكنه كان قلقا مربوكا . ودلف الى الدهليز الآخر الذي يؤدي الى حجرة المنسج ، وعند الباب رأى ما جعله يقف متجمدا . رأى الاب الذي أحبه جالسا الى المنسج منكبا عليه جبهته على النسيج وفي يده صوف وفمه مقفل باصرار وعوده منطو في طمأنينة وقد فارق الحياة .

صرخ الفارسي : أبي .. مت وانت تعبد .. مت وانت تعمل .. مت وانت مؤمن بالنبي الجديد .. أبي مت انت وليس دهقان فارس .. » .

ومال يقبله ويبلل وجهه بالدموع ، ثم حمله الى فراشه .

***

وبعد هذا الحادث الروحي الفذ استطال الليل وشحب النهار في نظر الفارسي .. وكانت قدماه تغلبانه في الذهاب الى هناك . الى حيث كان يسكن العابد ، ثم ما لبث ان تراخى قليلا . ثم انقطع تماما عندما ذهب الى المكان فاذا به قد حول الى معصرةللنبيذ وزحف الاهمال على المزرعـة وانكسرت سواري عرائش العنب فانكبت على الارض . وعندئذ أحس الفارسي ان هذا نداء له بالرحيل فرجع الى البقعة التي ترك فيها بقرته

وغنمه حيث كان يرعى وجلس على الارض في يمينه عصاً يضرب بهـا حجرا امامه .. حركة لا ارادة فيها . كأنها تعبير عن الهموم ..

سمع الفارسي غناء انتفض له . وذكره بحادث قديم . حادث كان عارضا لكنه في حقيقة أمره عميق الاثر . سمع حداء عربيا بصوت رخيم فكأنما بعث من خلال نبراته رفيق سفره الاول سهيـل العربي فضرب الحجر بعصاه . فانكسرت العصا .. نظر الى نصفها الذي سقط وألقى بسمعه الى الغناء . حدثه قلبه ان شيئا ما سيقع . لكن الركب لن يمـر بجواره . فجرى هو حيث وقف عند الطريق الواسع . وأخذ الغناء ينصب في أذنيه ففاحت منه رائحة الجزيرة . ونظر الى قدميه الكبيرتين في نعله الخشن فخيل اليه انهما قدما طفل يحن الى ملعبه هناك : « آه .. أرض ذات نخل بين حرتين .. آه » .

وسكت فجاءه صوت الحادي يقول :

يا نخـل تحـت ظلـك الحبيـب
يا ليـت لي في الظـل من نصيب
فديـت من اذا رأيـت طلعتـه
رأيـت بـدر الليل يحكي صورته
يا ليـت لي في الظـل من نصيب
يا نخـل تحـت ظلـك الحبيـب

وسكت الغناء وبدا سواد القافلة . ووقف الفارسي في الطريق وقد مد ذراعيه الى جانبيه كل في ناحية ليستوقف الركب . وهمهم المسافرون وخافوا . وسرت بينهم حركة استعداد كتلك التي يأتيها الجنـود بعـد

الاشارة الاولى . لكنهم ما لبثوا ان رأوا من صباحة وجهه ونقاء نظرته ما جعلهم يؤمنون بطهارة قصده . الشوق في عينيه والظمأ على شفتيه والتضحية أقرب الافعال الى قلبه :

ـ ايها الحادي .. لقد أثرت أشواقي .. قفوا بالله عليكم وثقوا انني عبد لكم .

فجاءته أصوات مختلطة :

ـ ماذا تريد ايها الرجل ؟

ـ ان لكم سحنة قوم أحبهم .

فجاءه صوت غليظ :

ـ ولكنك لست منهم .

فرد الفارسي بنبرة عاتية :

ـ ظلمتني .. اين وجهتكم بالله عليكم ؟

رد صاحب الصوت الأجش وكان رجلا طويل اللحية يجري سواد شعراتها في بياضها جنبا لجنب حتى اكتست لونا أزرق :

ـ وجهتنا جزيرة العرب ، فماذا تريد منا ؟

أمسك الفارسي بزمام ناقته وتشبث به فلو أن قوة الدنيا جذبته من بين أصابعه لمات دون ذلك . ورفع الفارسي رأسه الى الرجل وقال بصوت سمعه الجميع :

ـ انني مقيم هنا ، وليس هذا وطني يا سادتي .. انا من بلاد فارس، لكن وجهتي جزيرة العرب .. وأنا أملك اشياء تافهة وكثيرة ، فهذه الاغنام

وتلك البقر لي فخذوا كل هذا . سأسوقها امامكم واقتسموها واتركوني في الجزيرة .. في اي مكان عامر وبعد ذلك جزاؤكم على الله .

وما كاد الفارسي ينتهي من كلامه حتى سمع ذا اللحية يأمر بأن تناخ الجمال لتستريح حتى يعود اليهم هذا الرجل بما وعدهم به . وبعد أن أولاهم ظهره ورأوا صلابة أجلاده وعظمة بنائه خافوا ان يكون له اتباع من شاكلته ، فما لبثوا ان شدوا رحالهم وساروا . وكان الفارسي قد حمل امتعته التي لا تزيد على الغطاء والرداء وساق امامه ماشيته متجها الى حيث استراح الركب لكنه وجد المكان خاليا الا من آثار الرجال والجمال . فتلفت في الافق وقلبه يبكي . فما لبث ان رأى ظلالهم على بعد فأخذ يضرب ماشيته بقسوة لم يعهدها في نفسه سائقا نحو الركب وهو يصيح بهم ان انتظروا وكانوا يتلفتون . فلما رأوا صدق قوله انتظروه على الطريق حتى وصل اليهم . فأردفه واحد منهم خلفه ثم استأنف الركب مسيره .

وعند أقرب بلد باعوا أملاك الفارسي واقتسموا ثمنها ، وأعطوه نصيب واحد . فشعر وهو يأخذ هذه الدراهم ببهجة من وهبه الله العافية، فقد كان موقنا بأن الطريق لن يطول وأنهم سيحسنون اليه مثلما أحسن .
وكان السفر في أوله ممتعا. ساعة كانت القافلة تسير ومعها مال الفارسي وكان الحادي لا يكف عن الغناء وبين الجماعة هرج ومرج يوحي بالسعادة. وبعد أن قسموا الغنائم وأخذوا ينفقون منها في كل بلد يمرون به ونفذ كل ما أخذوا بدأ الموقف يتغير . وأحس الفارسي انه غير مرغوب فيه وانه قد سقط في فخ لكنه لجأ الى الصبر والحيلة .

وكان أول ما لقيه ان قال الرجل الذي أردفه وراءه :

ـ ان راحلتي قد تعبت . انك أثقل من عشرة رجال . أعطني سيفك هذا والا فترجل .. اجر وراءنا ان شئت ..

شعر الفارسي بأن كلمته عن السيف ليست في حقيقة أمرهـا سوى سيف أغمد في قلبه . ولم يكن في سيفه جوهر فقد كان السفر الطويل سببا في أنه باعه قطعة قطعة وأصبح مقبضه يحمل آثار الجواهر لكنـه كان في حقيقة امره ـ كسلاح ـ يعادل روح الفارسي نفسها فرد على صاحبه :

ـ دعك من السيف .. لكن انا مستعد ان أعطيك احدى بردتي هاتين وتكفيني واحدة .

رد رئيس الركب بصوته الغليظ قائلا : إنت رجل مغرور . اما يكفي اننا احتملناك كل هذه المدة . من أرض الروم الى الشام وها نحن أولاء قدمنا وادي القرى ؟..

قال الفارسي في نفسه : « ليتني أستطيع ان أبارزك » ثم هتـف به : « أهذا هو وادي القرى .. اني أرى فيه نخـلا انه واد مبارك .. » .

رد رئيس الركب في تهكم خفي :

ـ لقد أصبت عين الحقيقة .. لكن .. اعلم اننا قادمون بعد قليـل على قبيلة من اليهود تقيم في هذا الوادي وأبي يرحمه الله كان قد أصهر فيها . أي انهم أخوالي .

وعندئذ ترامت الى أذن الشاب ضحكات منتصرة من مؤخرة الركب أحس بعدها أن أشياء ضده قد دبرت بليل ، لكنه تحسس سيفه . فنظر

اليه اليهودي وقال له :

ـ انك لكي تصل الى هنا فقد كان لا بد ان تدفع الثمن يا بني .. لكن نسينا ان نسألك ما دينك ؟

ـ أعبد الله ..

ضحك الرجل ضحكة تقع على الاذن مثل الصفعة :

ـ وأنا أعبد الله .. أنا أسألك ما دينك ؟

ـ لو كنت تعبد الله حقا ما فعلت بي هذا انت وصحبك ان الذي يعبد الله حقا يحبه أو يخافه او يرجوه فيمن خلق . فهل انت تحب أو تخاف أو ترجو أيها السيد ؟ ماذا تريد ان أدفع لك ؟ لم يبق معي شيء يباع سوى سيفي وثيابي وقد كنت طوال السفر أخدم الركب رجالا وجمالا ومستعدا للدفاع عن مصيره .

ـ أوه .. انت متحذلق يا بني . أنا سألتك ما دينك ؟

ـ دين ابراهيم الحنيف ..

عم صمت .. وسادت همهمة : « آه .. آه آه .. من ؟؟ »

وقال الفارسي : .

ـ قل لي يا عماه .. بماذا تخيفني !..

حملق فيه :

ـ ألست خائفا يا فارسي ؟؟

ـ لقد تحررت من كل ما يورث الخوف يا رجل ... وها انت ذا ترى انني مستعد أن أتخلى عن ردائي وشملتي .. أما سيفي فلا .. ثم .. بقيت

(النفس) .. وليس لها الا مالك واحد هل تعرفه ؟؟

رد قائلا :

ــ نعم أعرفه .. وهو أنا ..

حملق الشاب بعينين مذهولتين وهم أن يجرد سيفه فلمعت حوله سيوف تبلغ المائة ، فرجع لكنه أيقن أن شيئا ما سيحدث وقال الرجل وهو يزبد :

ــ أتجرد سيفك في وجوهنا ايها الجبان .. نحن قادرون ان نتركك هنا وحدك وننصرف لتكون فريسة للسباع قبل مدخل الليل . لكن ديننا يمنعنا من ذلك ...

ــ وهل يبيح لك دينك ان تنقض العهد وتأخذ من مسافر كل شيء حتى ثيابه ؟

ــ لا تخف . سندع لك الثياب ولكني الآن اترك الخيار لك ، فاما أن تنزل من على الراحلة لتلقى المصير المعروف هنا وحدك واما ان تعطينا ثمن (نفسك) .. ادفع لنفسك الفدية من نفسك لنقسمها بيننا . هل تفهم ؟

همس وكأنه في حلم :

ــ الفدية ... وهل أنا أسير ايها الرجل ؟

ــ لا .. بل أنت رقيق . سنبيعك يا فارسي في هذه القبيلة ، وهأنتذا في أرض أعجبتك نخيلها كما رأينا . فهل تستطيع ان تفعل شيئا ؟

انبعث من جديد صوت الحادي حزينا وكأنه هو وحده الذي لم يشارك في هذا الاثم :

يا نخـل تحـت ظلـك الحبيـب
يا ليـت لي في الظـل مـن نصيب
.. ..
.. ..

وكان الفارسي يقول في نفسه وهو متمالك كل حواسه ومعنوياته : « وماذا يضير ما دمت في الطريق اليه . ان المملوك لا يملك مرتين في وقت واحد ونفسي ملك الله .. فهي في طلاقة الافق وحرية النسيم ... ومـاذا يفعلون بجسم رقيق ؟ لست أرى في هذا تناقضا يا ربي .. آه اين انت يا عابد (عمورية) لتقول لي رأيك ؟ لست أرى تناقضا في أن أخدم عبدا وأعبد الها ما دمت يا ربي قدكتبت علي أن « ابكي في الطريق اليك » .

كان الصمت مخيما على المجموع وقال ذو اللحية مستأنفا حديثه :

ـ ما رأيك يا فارسي ؟

ـ الرقيق لا رأى له .

ـ أصبت الحقيقة .. لكن لم تقل لي كيف تعبـد الله على ملة ابراهيم حنيفا ..

ـ لست من المشركين ..

ـ ولماذا لم تكن يهوديا ولا نصرانيا ؟

ـ ان أحباركم يعلمون معنى ما أقول فان كنـت تعرف أحـدهم فاسأله .

ـ فتى متحذلق .. ها نحن أولاء قد وصلنا ..

ثم رفع ذو اللحية عقيرته وأخذ ينادي :

ـ يا ابا يعقوب .. يا أم يعقوب .. يا يعقوب الغالي .. ها نحن أولاء قد عدنا .

وارتفع نباح الكلاب عندما نادى الاسماء الثلاثة . وسعت اليه امرأة هي أم يعقوب ورحبت به ، عرف الفارسي عندما رأى انفها انها يهودية حقاً .

وأناخت القافلة ، واجتمع الرجال حول المرأة ووقف الفارسي بين الجميع وقد فرعهم بطوله نامي الشعر واللحية في غير نظام . أشعث أغبر . في عينيه معرفة ومعركة ويقين. وأخذته عين المرأة فأحست بالخوف. وسألت ذا اللحية عمن يكون هذا الشاب ؟ فأجابها بأنه رقيق معروض للبيع. وانه قد لختار زوجها أبا يعقوب ليكون شاريا له . وفي فرح وخوف هرولت راجعة ثم عادت به .. بزوجها قميء مدبب الرأس من أعلى . كأن رأسه بيضة مقلوبة . وكان الفارسي ينظر الى الصحراء والجبال من حوله فلا يعرف شيئا الا انها أرض الله .. وجعل يرقب المساومة بين اليهوديين على الثمن وهو يبتسم اذ هو موقن بأنهم يبيعون ما لا يملكون ، وان هذه النفس التي يتساومون فيها سيستردها صاحبها بلا ريب ... سيستردها الله ...

ولم يلبثوا طويلا حتى تمت الصفقة وتركوه وانصرفوا .

وعندما كان الفارسي يتبع أبا يعقوب الى داره كان غناء الحادي يأتي من الجنوب وانيا متهافتا أكثر حزنا واكتئابا ..

يا نخــل تحــت ظلــك الحبيــب
يا ليــت لي في الظــل مــن نصيب
.. ..
.. ..

عدة منازل صغيرة متفرقة قائمة على السفح لجماعة من سيدهم أبو يعقوب ، يشربون ويسقون من بئر شحيحة الماء لكن قوام معيشتهم في الحقيقة هي الرحلات الى الهند او اليمن لجلــب البضائــع او السيوف والاتجار فيها .

ولما اشترى ابو يعقوب هذا الرجل الفارسي وانصرفت القافلة بــدأ يشعر بالندم . وأحس ــ ولسبب لا يمكن ادراك سره ــ انه انما اشترى لنفسه سيدا . فلم تكن نظرات هذا الرقيق الذي أضناه السفر والسهر والغدر والجوع كسيرة ولا ذليلة . بل كان يرى ــ كأنه احد الاحبار ــ في أعماق عينيه السوداوين الفارسيتين أسرارا روتها التوراة عن تبــدل الدنيا واشراق النور الجديد .

وأراه مكانه . حيث يجب ان يقيم ، بيت مستقل . ان وقف كان السقف يلمس رأسه وآن تمدد كان الجدار يلمس قدميه . وعندئــذ قال الفارسي : ماذا يريد رقيق اكثر من ذلك (وتبسم) واختلى ابو يعقوب بزوجته في الليل وبثها احساسه ..

ــ ماذا ترين في هذا الرجل يا امرأة ؟

ــ ثمنه بخس . لو شئت بعناه بضعف ما اشتريناه به .

فلكمها في صدرها فتأوهت وقال لها :

ـ ليس هذا قصدي . ماذا ترين في روحه لا بنائه .. ماذا يـلوح في عينيه ؟

ـ أخاف منهما .

ـ ذلك هو شعوري . سأطفىء فيهما الشعلـة منذ غد فلا نعود نخـاف ..

همست خائفة :

ـ وماذا ستعمل ؟

ـ سأكلفه أشد عمل وأطعمه أقل زاد وأجني من وراء كل هـذا ربحا كثيرا ..

ـ أخاف عليك . ولكن افعل ما بدا لك .

وعند الصباح وقف ابو يعقوب عند البئر وصار يصرخ مناديا قومه والفارسي واقف الى جواره .

فلما التفوا حوله راعهم منظر الرجل ، ولما علموا انه رقيـق أبي يعقوب هنأوه وباركوه ثم سألوه فيم جمعتنا ؟ فقال لهم :

ـ هذه البئر لا يكاد ماؤها يقوم بحاجاتنا من زرع وسقي ، وكثيرا ما يغيض ماؤها . وقد عزمت بواسطة هذا الشاب ان أعيد حفرها وان أبني جوانبها بالحجارة ، وهذا يستلزم نفقات طائلة فهلا اتفقتم معي على ان اقوم بها وحدي نظير ان يدفع كل منكم ألف درهم ؟

وتجادلوا وتطاحنوا واختلفوا ثم اتفقوا . ومنذ هذه اللحظة عرف الرقيق عمله اليومي . وبعد قليل قال لليهودي :

ــ يا ابا يعقوب ..

ــ قل يا مولاي .. فأنت رقيقي ..

قال الفارسي بهدوء لا يقاوم .. هدوء كأنه ضجيج العواطف :

ــ ان لي سيفا دفنته في مكان أعرفه . أستطيع أن أقاتل به مائة رجل وانا وحيد وأموت دون ذلك سعيدا يا أبا يعقوب . ولن اقول لك من كان ابي . وماذا كان يملك فلم تعد هذه الاشياء مناط فخر في ضميري. ولكني اقول لك يا ابا يعقوب ان لي مولى واحدا وهو الذي من اجله بخلت بنفسي ان أريق دمها بين رجل مثل صاحبك هذا الذي باعني لك . فهو قد باعني وستبيعني انت في يوم ما . وأنا أحتمل كل هذا بصبر سعيد لانني بكل ذلك أشعر اني في الطريق الى من ارجو لقاءه . ان لك من يدي هاتين عملا كثيرا ولك من ضميري كل وفاء .. لك مني عهد لا أخونه لان مثلنا لا يخونون العهود . فأنا رقيق طليق يا ابا يعقوب .

ذعر اليهودي ونادى أم يعقوب وانتحى بها وقص عليها ما حدث فلكمته في صدره بدورها وحذرته من هذا الشاب قائلة له :

ــ انه مثل عاصفة رعدية .. اختبىء واتركها تروي الارض ولا تخرج اليها حتى لا يصعقك برقها .

ومنذ هذه اللحظات والفارسي يحمل فأسا ويصعد الجبل لكي يكسر حجارة يبني بها جوانب البئر . وعندما ضرب بذراعيه القويتين رأس الصخرة تطاير الشرر منها . فتبسم . وأحس بسعادة لا يدرك مغزاها. كأنما أشعلت الفأس نورا كشف له معالم لم يرها من قبل .. على حوافيها الجنة وبدأ يعمل حتى اذا ما فرغ بعد شهور أخذ يرمي بالحجارة من فوق الجبل

ثم نقلها الى البئر . وأخذ يحفر ويبني ويساعده في ذلك بعض الغلمـان وكانوا رقيقا ليهودي آخر .

وجنى الحي من ذلك خيرات غنوا لها وسهروا ورقصوا وزاد مال ابي يعقوب بعمل رقيقه الجديد .

لكن حدث بعد عام واحد من اقامة الفارسي بين هذا الحي من اليهود ان عزم ابو يعقوب على السفر الى الهند ، لصفقة تجارية . فيهـا لؤلؤ وسيوف وتوابل . فسهر يفكر : انه ان استصحب معه رقيقه هذا فانـه لن يأمن ما يحدث في الطريق فربما فر او ربما غدر به ، ان عينيه القويتين تربطان عدوه كأنما هو مكبل بالاغلال ، ثم قال اليهودي في نفسه : وان تركته فالله يعلم ماذا سيحدث في غيابي .. ولكن لماذا لا ابيعه لبعض أهل الحي ؟

وفي المساء التالي سعى هو بنفسه الى أغنى رجل فيهم ، فلما دخـل عليه وأخبره خبر سفره وانه ينوي ان يبيع هذا الرجل الرقيق وانه اختاره هو ليكون شاريا له ، تقلب اليهودي الآخر في جلسته وقال له بعد ان قبض على كف بكف :

ــ هل تريد الحقيقة يا ابا يعقوب ؟ ان كنت تنشدها فمن حقـك ان تبيعني انا رقيقا له .. وليس العكس .. ليس مثل هذه الروح تستعبد . وليس يتغير جوهر المسك ان سميناه طينا . يا ابا يعقوب انك في قرارة نفسك تحس انه سيدك .. لماذا تطرق ؟.. لماذا لا ترد ؟.. حمل الاحجـار وحفر وبنى وسقى بقوة تمدها قوة لا تدرك .. انت تخاف منه ولـو عرضت بيعه على أهل الحي شركة لخافوا . هذا الرجل الصامت الذي يتطلع الى السماء كلما وضع الفأس وكف عن العمل في انتظار شيء ..

فلا تسافر يا ابا يعقوب حتى تتخلص منه . فهو سيدك وليس رقيقك وان شئت فاسأل ابنك عن احساساته نحوه ..

قال اليهودي :

ــ أنا مصدق كل ما تقول . لكني لن اسافر حتى أقضي فيه برأي ...

ولم تمض ايام حتى مرت احدى القوافل .. وهللوا وفرحوا عندما رأوا الماء ..

ونزل رجل من يهود بني قريظة يسأل عن ابي يعقوب ، فلما رآه أبو يعقوب عانقه وظل يقبله في كل موضع من وجهه لانه رأى فيه الخلاص فهو يعرف انه يملك ارضا ونخلا وغنما وابلا وانه سيد في بني قريظة ..

واختلى الرجلان ..

ــ أهلا أبا كعب .. وكيف حال شعبنا هناك ؟

ــ أهلا ابا يعقوب .. وكيف حال شعبنا هنا ؟

وجلسا يأكلان . وأخذ أبو كعب يقص على صاحبه قصة الرحلة وإن هذه آخر الرحلات في هذا العام . وبينما هما يتحدثان اذ سمعا صوتا فخما عزيزا ينادي صاحب الدار :

ــ يا أبا يعقوب .. سأصنع لك منسجا كالذي رأيته في بلاد الروم وأنسج لك صوف غنمك فتربح منه الكثير ..

تلفت الضيف مذهولا وسأل :

ــ من هذا الرجل ؟

غمزوه من كل جانب ثم صرفوا الفارسي لامر ما . ثم قالوا انه رقيق اشترياه من احدى القوافل . عض الضيف شفته ثم سبابته وقال لصاحب الدار :

ــ ما رأيت مثل هذا .. تبيعني اياه ؟

تدلل ابو يعقوب وتأبى .. وضحكت أم يعقوب كأنها تستغرب الطلب ، لكن ما لبثوا ان عرجوا على الامر أثناء الحديث ، وقبل رحيل القافلة كان ابو يعقوب قد قبض ثمنا لعبده خمسة آلاف من الدراهم .

***

نظر الفارسي الى اهل الحي الذين التفوا حوله يسألونه وهو يمتطي ظهر ناقة : الى اين الرحيل ــ نظر اليهم نظرة دامعة ليست على الارض التي تركها ولكن حنينا الى الارض التي هو ذاهب اليها . وكانت البئر آخر ما وقعت عليه عيناه .

وبدأت القافلة في المسير واستتب لها الطريق واذا بأحد الحداة يردد ما ردده الاول :

يا نخل تحت ظلك الحبيب
يا ليت لي في الظل من نصيب
.. ..
.. ..

ابتلت لحية الفارسي بدمعة ، ومرجحته الناقة وهو ينظر الى السماء. كان نورها شديد الرونق بالغ العمق . كان أكثر من نور سماوي ، كان نورا وعطرا ومتعة روح . وشيء من دموع الرجل يصل الى فمه فيحس طعم الدمع فكأنما شرب شيئا نادرا وقال في نفسه :

« يد تسلمني الى يد حتى أقبل يديك .. هذا يقيني .. ايها النبي الذي آمن به شيخ عمورية .. هل انا في الطريق اليك ؟.. وادي القرى كأنه يحمل عطرك .. » .

ثم رفع صوته : ايها الحادي لماذا لا تغني ؟.. الحبيب تحت النخل .. ايها الحادي قلها من جديد ..

- ٥ -



هتف دون ان يشعر والقافلة تدخل المدينة والنخل يهتز بريح لينة وعليه بقية مطر والارض ذات الاحجار السوداء حولها تلمع به . هتف : « هذه والله ارضه واني ملاقيه هنا .. » .

ولم يكن الفارسي يدري اذ صوته قد ارتفع حتى سمعه ابو كعب فمال اليه بعنقه وسأل : عمن تتكلم ؟

قال وكأنه لم يخرج من نطاق فكرته :

ـ عن رجل احلم بلقائه .

ـ صديق ؟

ـ ليتني اسمو الى هذه المنزلة . انني واحد من عدد لا يحصى يحلمون نفس الحلم .

ـ لست فاهما قصدك .. هل قابلته وأنت مسافر ثم افترق بكما

الطريق ؟.. آن لك ان تستريح يا فارسي ..

سمع الله منك ..

ـ نحن قوم مجتهدون ، نحن أهل زرع وحرث نقيم فلا نبرح .. هكذا بنو قريظة ـ وهم قومي ـ وهذا دأبهم ولذلك آن لك ان تقيم :

.. ..

وأقام .. ينام في بناية واسعة منعزلة عن الحي تكدست فيها الحبال وأدوات الزراعة وادوات اصلاح النخيل ، وفي أحد أركانها بقية تمر فاسد ، فاحت رائحته فملأت الهواء .

كان متعبا من العمل . وتمدد على فراش من السعف وعليه غطاء من الصوف خشن جدا وسراج شحيح النور يضيء المكان على قدر طاقته . والليل شديد البرد . وأخذ الفارسي يفكر . لم يدر لماذا عادت به الافكار الى اول الطريق ؟ وتحسس الفراش وتذكر فراشه في فارس ، وتلك المخاطر التي تعرض لها والطاقة الروحية التي ألقى بها شيخ عمورية ثم .. تذكر بما يشبه الرفق أباه وامه واخته بوران .

ولمع في المكان منجل تحت النور الواهي . واقتحمت المنظر بجملته لفة من الحبال المكومة بلا نظام .. وجرى احد الجرذان نحو السقف .. وعينا الرجل ترقبان كل شيء وفي قلبه حنين ..

وسأل نفسه : « هل يتمنى أن يرى احداً من اهله ؟ » ولم يجد جوابا ، كأنما نادى في مكان لا شيء فيه يردد حتى الصدى .

واخذ يستعيد تفاصيل رحلته وهذا اليهودي الذي باعه لآخر .. وملامح شخصية السيد الجديد .. ابو كعب هذا .. انه وقومه الذين يسكن الآن بين ظهرانيهم منذ بضعة شهور يمتازون بالجبن ، ليسوا أهل حرب ، همهم ان يزرعوا ويحصدوا ويبيعوا ويكنزوا . واحس الفارسي ان أبا كعب رجل لين العريكة تمكن الاقامة عنده الى ان يقضي الله أمرا كان مفعولا .

ونظر الفارسي الى سيفه .. فأحس بشوق اليه . كان معلقا على مقربة بين كومة أدوات الزراعة فنهض وأتى به . ولذ له ان يجلوه فأخذ يفعل . وتلألأ السيف كأنه يحدثه عن ليلته الاولى ليلة حرر يديه ورجليه من حبال الكتان التي أوثقه بها ابوه الوثني . فخيل للفارسي ان السيف قد حطم وثنا ، عندئذ ادناه من أنفه وشم رائحته ، فاحت رائحة الصلب المعروفة وملأت خياشيمه . فسأل نفسه : ماذا سيكون مصير هذا السيف؟ انه وقد خلا الآن من الجواهر قابل لان يحلى بجواهر جديدة يعلم الله ما نوعها ..

وقام فعلقه فتدلى نحو الحبال ، ورجع الى مرقده وتمدد . ونظر الى السقف وتنهد . وقال في نفسه : « الى متى يا رب يطول الانتظار .. انا لست وثنيا ولست الآن نصرانيا .. وهأنذا في أرض اليهود ولست يهوديا كما تعلم . كنت مع عابد أحببته فيك وأحببتك فيه ارتفع بمعرفته لك حدا كدت أراه فيه غير تابع لنبي لكنه سبح في نورك . وشيخ عمورية الذي مات يا ربي هو المسؤول امامك عما ألت اليه . وانا لست فريسة للشك . فاني أرى في عذاب كل لحظة مرت بي ورقة خضراء تتفتح على شجرة الحكمة .. حكمتك التي تخفى على الناس يا ربي . وانا الآن فوق فراش من الخوص وتحت غطاء من الصوف . وليس يهمني غطائي

ولا فراشي بقدر ما يهمني ما تبسطه لي أنت وما تسبله علي .. فكل قطرة دم وكل شهقة نفس ملكك .. واشواقي تقودني وخطواتي تتبعها وانا بانتظار النور » .

***

قال ابو كعب للفارسي بعد عامين من اقامته :

ـ انت رجل قوي ، لكنك تبخل بقواك على مولاك .

فلم يرد عليه ولكنه أشاح عنه بوجهه ونظر الى السماء على حين استطرد اليهودي :

ـ أنت تذكر يا فارسي يوم كنا في وادي القرى عند ابي يعقوب .. يوم دخلت عليه في آخر ايامك عنده وقلت : انك تود ان تعمل له منسجا وتنسج عليه صوف أغنامه . فلماذا لا تفعل هذا عندنا ؟

ـ لا بأس يا ابا كعب . سأفعل .

ولم تكن هذه الرغبة الا استجابة لالحاح في استرجاع ذكريات خلت له في عمورية كأنما كانت مع امه وابيه .. واحس الرجل انه محتاج لمثل هذا كثيرا .. لان المنطقة يغطيها الجدب بمعانيه كلها . فلياليه التي يقضيها مؤرقا كمسافر يبيت في انتظار دليل ـ من الممكن ان يقطعها .. وشعر ان هذه البقعة من الارض ستكون ـ بحكم معرفة الله لحاجاتها ـ مهبط وحي ووطن نبي . وستكون هذه الرمال التي تنبسط حتى تلمس صفرتها زرقة السماء محجا لكل الامم .

وبدأ أهل الحي من بني قريظة يتحدثون عن منسج ابي كعب وعن العمل الذي يقوم به له رقيقه الفارسي . وبدأ الرجل يسهر وأخذ يحاكي في عمله ما يفعله العرب في نسج الخوص وما يفعله الفرس في نسج المطارف .. يد تعمل وعقل يفكر . والزمن يجري في تشابه . غير ان الفارسي كان يرى في كل يوم قنطرة لليوم الذي بعده . يعبرها في حبور حتى يأتي اليوم الموعود .

والعمر يجري .. وقف الفارسي في مطلع الشهر على تل يهيب بالغنم ان تعود الى حظائرها فرأى هلالا مولودا فتبسم واخذ يحسب عمره . انه هنا في ارض يثرب منذ ثلاثة اعوام أو أكثر .. وها هوذا يدلف نحو الثالثة والثلاثين .. وها هوذا يكاد ينسى تاريخ ذاته .. أهو حقيقة ذلك الطفل الذي ولد في فراش الخز والديباج في ارض فارس . وفرح بمقدمه الدهقان واقيمت لميلاده الصوات في بيت النار في القرية ؟

وهز رأسه وهو ينظر الى الهلال . وقطعان اغنام بني قريظة تنحسر وتتجمع في طريقها الى حظائرها .. وناقة شديدة الحنين ترجع بصوت كأنه نداء حبيب . وهز رأسه : « في كل عام يدفن الرجل منا ذاته في ذاته. يدفن الأضعف لينبعث الاقوى أو يدفن الاقوى لينبعث منه الاضعف .. وليس هناك ما يربط الاول بالثاني للتذكر .. نعم . صدقت يا شيخ عمورية .. » .

وسلم عليه في الطريق احد الرعاة . أحس وهو يشد على كفه ان رابطة ما تربط بينهما .. من تلك العلاقات التي ينشرها الله بين البشر فيجعل المغتربين يحسون بالتآخي . وكان قصير القامة ذكي القلب سريع الحديث . في عينيه قلق وجمال يتناسبان مع صغر سنه ، وقال للفارسي وهما في الطريق :

ـ اريد أن أتعلم منك يا عمي ..

رد الفارسي بتواضع :

ـ وماذا عندي لأعلمه لمثلك ؟

ـ لقد تحدث الناس عن أغطية الصوف التي تصنعها يداك .

ـ وما اسمك ايها الشاب ؟

ـ اسمي حسان ، انا اسمي شاعر المدينة حسان بن ثابت .. هل سمعته يا عماه ؟

ـ ربما ... لا .

فتأوه الشاب . وحملت آهته مدى لذة الروح .

ـ انه يقول شعرا في النبي الجديد ..

هتف الفارسي واحتضن الشاب .

ـ ماذا تقول ؟ النبي الجديد ؟.. ثم هتف في سره : « آه يا شيخ عمورية . ليتك معي وحملتك لألقاه . اني اخاف ان اموت على منسجي قبل لقياه مثلما مت على منسجك . فالعمر منحة .. » ثم رفع صوته قائلا للشاب :

ـ زدني حديثا عنه .

ـ اتركني فقد بعدت عنا الغنم ، وسأعود اليك الليلة لأتعلم وأتحدث .

***

والسكينة تملأ المكان والقلب ، سمع الفارسي طرقة على بابه ورائحة الحبال والليل والتمر والصوف تفوح في المكان . ودخل الشاب بـادي السعادة .. واحتضنه الفارسي كأنه ابن له لقيه بعد فراقه . ولاول مرة منذ رحيله عن عمورية أحس بأواصر القربى . وجلس هو وحسان الى المنسج . في يدهما الخيوط وفي قلبهما الامل . وقال الشاب دون مقدمات:

ـ تركتهم يتجمعون هناك . الأوس والخزرج وقـد سماهم النبي بالانصار .. التقوا به عدة مرات في (العقبة) وأسلموا وعلمهم من دينه ما أسعدهم . ولم تعد بينهم حرب يا عمي .. وابن ثابت في الطريق اليهم، ليقول اشعاره في الرسول الذي لا يزال في مكة ..

ـ حدثني عن الذين تبعوه .. ضحك الشاب ضحكة من يستكثر على الصغير ان يخبر الكبير بشيء أو يعلمه اياه :

ـ أما رأيت ذات يوم جبلا تغطيه الشمس بأشعتها .. هل تفرق الشمس بين السفح والقمة ؟ انها لا تفرق .. هذا هو دينه الجديد .

ثم اخذ يتلفت في أنحاء المكان الذي يغطيه نور خافت حتى وقعت عيناه على شيء ما فوثب الشاب وقام وجاء به :

الناس في دينه سواسية مثل اسنان المشط .. لم يبق من لا يتبعه الا من يخافون على عرش او سلطان لا يستظل بظل الله . مثل ابن أبيّ بن سلول .

ثم أمسكا بالصوف وجعلا يعملان ليلة في ارض العرب أعادت الى الذهن ما كان هناك في ارض الروم . ولكن الشاب كان متدفق الحديث . كان يحس بفرحة من ملك شيئا عظيما يزيد في عظمته ان يحدث الناس عنه.

كان قد ملأ جيبه تمرا وأخذ يأكل ويتكلم والفارسي منصت كأنه في حلم :

ــ آه يا عماه .. لقد حفظت كثيرا من القرآن الذي أنزله الله عليه . جاءنا من مكة رجل يقرئنا اياه .. ثم قرأ « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون .. » .

وكانت عيناه تدمعان وصوته ينفذ من خيوط المنسج وعينا الفارسي على السيف المعلق . خيل اليه انه يختال في قتال وان كان له غمد غليظ ، وتذكر يوم فقده وعاد اليه مع رفيق سفره فأيقن ان ذلك لانه يريده الله . وأفاق الشاب بعدما هوم برأسه كأنه نام ونظر الى الفارسي فاذا به ساهم عيناه تنظران الى بعيد وفيهما عمق لا يدرك له مدى . وعندئذ ربت الشاب كتفه وهمس :

ــ عمي .. هل انت نائم او مفكر ؟.. همس الآخر ..

ــ نبي ! ماذا تقول في رجل آمن بمحمد قبل لقياه . وان كان مولى من موالي اليهود يخدم ارضهم ويرعى ماشيتهم .. نبي ــ فلتأت كل ليلة تحت جنح الظلام بحجة انني أعلمك ولكن لتعلمني ، لأحفظ منك ما حفظته من القرآن . سأشتري منك غاليا برخيص .. فلا تبخل بشيء على ربك ..

فتح الشاب فمه وهو لا يكاد يصدق وهمس : « هل انت مسلم ؟» وطوقه بذراعيه وأخذ يقبله ثم همس بصوت خفيض :

ــ لكن ألا يشك بنو قريظة في أمري اذا ما استمر ترددي عليك ؟

ــ لا تخف ، سأضاعف جهدي لأقدم لابي كعب من النسيج ضعف ما اعتاد ان يأخذ مني حتى يوقن ان هذا من عمل يديك . لن انـام ليلي لاغدق عليه من متاع الدنيا ما يريد . وهذا لكي تلقاني فليس في قدرتي أن ألقى أحدا هناك ما دمت رقيقا . فهل تعاهدني يا حسان ؟

ــ نفسي فداك .. فدى الحر الرقيق . ان قيداً من الحديد يكبـل جبل (أحد) غير قادر في نظري ان يكبل نفسك العظيمة .

ــ نحن بانتظار شيء فعلينا ألا نحزن . آن لك ان تعود فاني اخاف عليك ..

ــ وداعا ..

وأقفل الفارسي وراءه باب حجرته ثم جلس الى المنســج يردد في همس ما حفظه من القرآن ويهتف بين لحظة واخرى : « وعندما أرى وجهه سيلقى قلبي عصا الترحال . أما عقلي فسيقف على عتبة المعرفة . نعم . هكذا يا ربي يا منزل القرآن على أكمل انسان .. هكذا حكمك .. سأغترف فيض الحكمة من بين يديه . وكان في قدرتك ان تجعل مولدي حيث ولد . لكنك شئت لي قبل أن ألقـاه ان تطهر نفسي في نهر عاصف التدفق . نهر حياتي التي بدأت في مزرعة وانتهت الى مزرعة .. وليس يكفي قلبي يا ربي أن أعبدك على دين محمد لكن ان تجعل مني أحد جنـود الاسلام وان تكرمني بمشقة جديدة اجعلها وسيلة اليك ، مشقة يثقـل وزنها على وزن ما قد حملت في سبيل ناس من اليهود كانوا قنطرة بي الى شاطىء الحكمة . فالعبرة بما نعبر اليه لا بما ندوس عليه .. ان اسباب دعائي لك ممدودة كحبل من الارض الى السماء لا اريد ان ينقطع حتى تقطع بيدك القادرة حبل أسري . اما اذا كان ذاك سبيلا لرضاك ونصرة لدينك فلا تقطعه . ولتكن هذه ورقة جديدة على شجرة حكمتك » .

لم يشعر الفارسي ان الصباح قد تضاءل من حوله لان نـور النهار كان قد تسلل من كل شق وكل خصاص وفرش حجرته المليئة بالصوف والحبال والتي يتدلى على أحد حوائطها سيف من بلاد فارس .

وعندئذ فتح الباب ليستقبل السماء والرمال والنخيل وفي احـدى يديه منجل وفي اليد الاخرى طعام يكفيه يومه .

- ٦ -

أصبحت حياته منذ ذلك العام في جلال اللحظات تنغمس فيها الروح في ابتهال مقدس ، فلا تشعر بامتداد الزمن . وأحس أن حياته جديرة بأن يعيشها بل وأن يبخل بها على الموت .

ولأول مـــرة يذكر الموت بخوف . كم تتوق نفسه لمعرفـــة الصلاة الجديدة .. وما أشد ظمأه لأن يؤديها وراء النبي ..

وكان بنو قريظةفيخوف دائم . كانوا لا يفترون عن ترميم حصونهم وتجديدها لانهم يعلمون بما تكنه قلوبهم من عداوة للنبي العربي ولعلهم كانوا يطمعون أن يكون النبي الذي وعدت به التوراة منهم هم ..

ورآهم الفارسي وهم يعملون في حصونهم ما يعملون ودعوه الـــى أن يفعل ، لكنه قال لهم : اني أعرف في هـــذا شيئا . ليس لي الا الرعي والزرع ثم هتف في نفسه : « الله وحده هو الذي يعلم أنني ربما أكون من جنود يهدمون هذا فوق رؤوسكم » .

وانصرف الى النخل .. صعد نخلة يجز جريدها وصاحب النخل جالس تحته . أمامه نار عليها وعاء فيه تمر ولبن . والسماء في صفاء اللازورد . نظر اليها الفارسي ونسي نفسه .. وحملق في أبي كعب أسفل فأحس أنه ضئيل .. قميء جدا في قماءة الجرذان التي تسكن معه الحجرة . ولاحت له من فوق النخلة منازل بني قريظة وحصونها ، ومن بعيد أيضا رأى الحجرة التي يسكنها . خيل اليه أن نفسا من أنفاسه لم يخالط هواءها قط . كوطن غريب . اتجه ببصره نحو الجنوب حيث تقع المدينة والطرق المؤدية اليها ..

وعاد فنظر الى السماء . رأى طيورا تتضام وتتجمع كأنما سمعت دعاء طائر تحبه . وفي قلبه اليوم حبور . وأحس فوق ذلك بشيء مادي .. ان عينيه قادرتان أن تخترقا الحجب وكأنه يرى فارس من فوق النخلة ويرى ناسا داخلين اليها وهو بينهم .

وتبسم . وسمع هتاف أبي كعب ينادي به : يا فارسي : لقد نام أحدهم على نخلة ذات يوم فسقط فدق عنقه .. هل تسمع ؟؟ لم يرد عليه بل أخذ يعمل بالسكين في اصول الجريد ولم يلبث الا قليلا حتى رأى رجلا من اليهود يجري نحو أبي كعب ، وأحس قلبه أن حادثا وقع فكف عن العمل ونظر أسفل النخلة . وكانا في بادىء الامر يتهامسان فلم يسمع ما يقولان لكن ابا كعب اضطرب وتراجع حتى انكفأ وعاء طعامه على الأرض . ثم ارتفعت الاصوات . قال أبو كعب غاضبا وهو ينظر الى اللبن المراق :

ـ أليس هذا فألا سيئا .. انكم يا بني قريظة من أشهر الجبناء . تصدقون كل شائعة وتجرون في كل اتجاه .. من قال لك هذا يا رجل ؟

رفع الثاني عقيرته صائحا فيه :

ـ « قاتل الله بني قيلة . انهم ليتقاصفون عليه بقباء » ، وقد قدم من مكة ، ويزعمون أنه نبي .. » .

أما أبو كعب فخر جالسا . وأما ابن عمه الذي كان يحدثه فولى يجري كأنه يبحث عن ملاذ . أما الفارسي فقد أخذ يرتعد .. اصطكت أسنانه ونضح عرقه . أما القلب فقد كان له لغته الفريدة. كان في استعداد وخوف ليس من ذلك الخوف الغريزي المعروف ولكن كان مزيجا من رهبة واجلال وشوق يبلغ حد الظمأ . وبلغ به حد انه كاد يرمي بنفسه من فوق النخلة . ولكنه نزل سريعا كأنما نداء كل القلوب المحبة انصب في أذنيه الآن ..

وارتاع أبو كعب حين داست أقدام الفارسي العارية على فضل ردائه وهو جالس ينظر بحسرة الى اللبن المراق ويتدبر ما قال له اليهودي عن مقدم النبي .. نظر أبو كعب الى مولاه نظرة رجل يتهم بالجنون رجلا آخر . فقد كانت عيناه الفارسيتان ـ تحت حاجبيه المقرونين ـ في اتساع مخيف . وفي سوادهما رأى اليهودي شخصه . وكان الفارسي يلهث يهتز صدره المفتوح اللابس قميصا من الشعر الاسود تحت قميصه الداكن . وفي يده سكين وعلى كتفه حبل . وفي ساقيه قدرة على الجري بحيث تسابق الريح .

وبعد لحظات سأل اليهودي :

ـ هل جننت يا فارسي ؟ هل لدغتك عقرب ؟

همهم :

ــ ماذا .. كنتما تقولان ؟

لكزه اليهودي في جنبه لكزة قوية أودعها كل مخاوفه وحقده فهو يعلم ان النبي القادم الى المدينة « رحمة للعالمين » جاء ليمحو الذل والعوز والكبرياء والترف .. والفارسي أحد الذين سيعزهم دينه . وكان لا يزال واقفا بانتظار رد أبي كعب الذي ما لبث ان قال له :

ــ مالك ولهذا ... اذهب الى عملك ..

فصعد النخلة من جديد . وأخذ يترنم بذلك الحداء الذي سمعه في وادي القرى يوم غدره اليهودي الاول وباعه لهذا الجالس تحت النخل كأنهم يدفعون به من حيث لا يشعرون الى طريق الله .. جعل يترنم :

يا نخــل تحــت ظلــك الحبيــب
يا ليــت لي في الظــل مــن نصيب
.. ..
.. ..

ولما سمع الغناء أبو كعب جعل يتلفت ثم رفع رأسه الى اعلى بعد ان عرف المصدر وقال للفارسي :

ــ ليس تحت ظل النخل سواي يا فارسي .. شكرا لك .. ما رأيت عبدا يحب مولاه مثل حبك لمولاك ..

هتف الفارسي من أعلى وبصوت صعد نصف منه الى السماء وهبط نصف منه الى الارض :

ـ ما قلت كلمة صدق يا أبا كعب سوى هذه ..

***

ملأ وعاء من الخوص الجديد بأطيب أنواع تمر المدينـــة . ولبس ثيابه المغسولة . ونظر الى سيفه المعلق .. وأمد المصباح بزيت جديد . وطيب كفيه بأن فرك بينهما بعض الاعشاب العطرة وأقفل باب حجرتـه والليل ساكن ثم خرج متسللا يريد « قباء » حيث نزل المختار .

لم تمتزج اليقظة الحادة بالخدر الغامض في شعور انسان بقدر مـا كانا يمتزجان في شعور الفارسي وهو يحمل وعاء الخوص ويمشي تحت النجوم . كان ينظر اليها فتغمز كأنها تذكره ببعض قومه الذين عبدوها فأشاح بوجهه .. ولم تنبحه كلاب بني قريظة حتى عبر .. ثم سار نحو قبــاء .

وعندما قارب المكان الذي نزل فيه النبي ، وقف في العراء ووعاء التمر تحت ابطه ونظر الى السماء وهتف :

« يا من خصصتني دون أهل بلادي بأن أرى هذا النور ، اجعلني أهلا لان أنظر اليه .. وكحل به عيني وقلبي » .

ثم مضى ..

وقف قريبا من مجلسه بطوله الفارع وأجلاده القوية . وكان حول

الرسول عدد من بني عمرو بن عوف ، والى جانبه الصديق ابو بكر . ولم يكن الفارسي يعرف اين النبي في الجالسين لكنه بعد ما أدار عينيه فيهم وهم يتحدثون ، عرف الطلعة التي ترى بالقلب . كان يتكلم في جلال ونبرات حديثه تخط للمسلمين وطنا جديدا ستشرق الشمس فيه .

ولم يتقدم حتى سكت النبي عن الحديث . وعندئذ خطا اليه . أحس انه يدوس بقدم عارية على أبسطة كسرى ليلقى الرسول . والمرئيات حوله مثل ستائر تهتز وكل حسيه متجه الى محمد .

ومن جديد وقف مرة اخرى . اخذته عينا النبي . أحس بقوة رفعته ثم التقطته .. شعر انه في محتواها .. في حيزها بكل كيانه .. التلاشي مع الوجود في وقت واحد . لكنه عاد يشعر بوجوده اكثر من تلاشيه عندما ابتسم النبي سائلا في رفق :

ـ من الرجل ؟ تقدم ..

وتلفت الحاضرون وعرفه بعضهم . وتقدم ذلك الذي كتب الله عليه أن يسيح في الارض حتى يلقى نبيه وجلس بين يديه واضعا وعاء التمر الى جانبه (جانب الفارسي) وقال للرسول :

ـ انا .. سلمان الفارسي .. اسمي سلمان الفارسي ..

فأطرق الرسول مليا ثم رفع رأسه ونظر اليه ثم هز رأسه وابتسم . وكل ملامحه تدل على تقبل عظيم .. واستطرد سلمان :

ـ « انكم اهل حاجة وغربة . وعندي طعام نذرته للصدقة . فلما ذكر لي مكانكم رأيتكم أحق الناس به فجئتكم به » .

وأشار الى الوعاء . فقال الرسول لاصحابه : « كلوا باسم الله »

وأمسك هو فلم يبسط اليه يدا ..

وعندئذ هتف سلمان في نفسه : « رحم الله شيخ عمورية .. لقد زودني بعلامات أعرف بها النبي الذي كان ينتظره .. اللهم اني مؤمن به .. لكن هذه واحدة .. فانه لا يأكل الصدقة .. » .

وبعدئذ تزاحمت الوفود على الرسول وتأخر الفارسي ليخلي السبيل لغيره . وعاد الى مسكنه في الليل من جديد . تمدد على فراش الخوص فأحس انه خشن . لماذا ؟.. وفكر فأدرك انه منذ قليل أحس وكأنما وطئت قدماه الحافيتان على بساط كسرى . فتبسم . وظل يعاني أرق المشتاق حتى قرب النهار فخرج الى عمله . ثم عرج على السوق واشترى من اطيب طعام المدينة وسار مرة أخرى الى الرسول .

رأى رجلا عليه هيئة المسافر ، هلل القوم وكبروا حين دخل عليهم ، ونهض الرسول وعانقه وفي عينيه حب وشكر . وسأل سلمان عن القادم فعرف انه علي كرم الله وجهه وكان قد تخلف في مكة حتى أدى عن الرسول الودائع ولحق به في قباء .

عندئذ تقدم سلمان وسلم ثم جلس بين يدي الرسول الذي نظر اليه واستطالت نظرته وقال له :

ــ ايه يا سلمان .. فأطرق الرجل وهو يقول :

ــ « اني رأيتك لا تأكل الصدقة .. وقد كان عندي شيء أحب أن أكرمك به هدية » .

ووضع الطعام بين يديه . فقال الرسول لاصحابه :

« كلوا باسم الله » وأكل معهم ..

عندئذ هتف سلمان في نفسه : « رحم الله شيخ عمورية .. لقد زودني بعلامات ثلاث أعرف بها النبي الذي كان ينتظره وهذه والله العلامة الثانية .. انه يأكل من الهدية » .

★★★

قال سلمان وهو في الطريق الى بعض شأنه حين لقي رجلا عرفه :

ــ هل أنت ابو ايوب خالد بن زيد ؟.. لعلي غير مخطىء اذ قلت ذلك ..

ــ ولعلي غير مخطىء انا الآخر ان قلت : انت سلمان الفارسي. وقد عرفتك بقامتك منذ جلست بين يدي رسول الله .

فأقبل سلمان على الرجل يلثمه ويقبل يديه ويهمس : « هاتان اليدان اللتان حملتا رحل رسول الله عن ظهر ناقته حين أناخت أمام دارك فدخلت بالرحل بعد أن نزل الرسول في بيتك .. » فقاطعه الرجل قائلا :

« هل انت مسلم يا سلمان ؟ » فردد آيات من القرآن .. فدهش وسأله : « ولماذا لا تجهر ؟ » .. فقال سلمان : « قل لي اولا اين ألقى الرسول اليوم ؟ » .

ـ تعال معي .. أسرع ..

وهناك في البقيع رأى الرسول يتبع جنازة ، فسار حتى ادركه .. « وكان حوله اصحابه وعليه شملتان ، مؤتزرا بواحدة مرتديا الاخرى ».. فسلم عليه ثم عدل وتأخر لينظر أعلى ظهره .. ومـا هي الا لحظـات حتى ألقى النبي بردته عن كاهله ، فقد احس بما يبحث عنه الفارسي فهتف سلمان في نفسه : « رحم الله شيخ عمورية .. لقد زودني بعلامات ثلاث أعرف بها خاتم المرسلين .. وهذه والله هي الثالثة . اذ قـال لي : سترى بقلبك حين تنظر بين كتفـيه خاتم النبـوة .. شهدت انك رسول الله حقا وصدقا » .

***

وعندما دخل الليل ذهب سلمان الى الرسول . كان في هذه المـرة شاعرا بأنه سيلقي بكل أثقال نفسه بين يديه . وعندما لاح بعوده الطويل على مقربة من مجلسه ابتسم له النبي ابتسامة اعرض من كل ما قد لقيه بها من قبل . كأن نورها يقول له : « آن لك ان تجهر بما في قلبـك » . وخاض الجمع الى حيث يجلس عليه السلام ومال على يديه يلثمهما ناطقا بالشهادتين وعيناه تدمعان . وفي كل قطرة دمع يذوب أعوام طويلة من الشوق .. وربت الرسول على كتفه ليجلسه . وعندئذ انضم الى جنود الله فارس من أرض فارس . حمل عنه الرسول أثقال نفسه حين أمره ان يقص عليه قصة حياته .. ففعل حتى اذا ما قال انه رقيق في بني قريظة ..

أمر النبي اصحابه ان يساعدوه ليتحرر . وعن طريقهم سيدفع الفدية ..

★ ★ ★

غير ان سعادة الروح لم تكتمل لسلمان مرة واحدة .. فقد امتـد زمن رقه عند بني قريظة عدة سنوات ..

دخل حسان ذات مساء وجلس على المنسج وأخذ يردد على مسامعه ما سبق ان تناهى اليه عن انتصارات المسلمين في بدر . فأخذ سلمان في البكاء . وعندئذ صعق الشاب فقال له سلمان وهو يجفف دمعه بكمه :

ــ انك كنت وراء المسلمين لتزودهم بالنبال . وكان أبوك في المقاتلين وأمك تواسي الجرحى . ومن ثلاث طرق يا بني دخل الى داركم رضوان الله : أما أنا .. فانظر موقف من تدعوه « يا عمي » .. ففى هذه الحجرة فارس وسيف وايمان . الرق يمنعهم من العمل ..

قال الشاب في تعطف شديد :

ــ كل ذلك لميعاد . لا تحزن يا عمي .. فليس يسرني ان اقول لك ما سمعته عن أبي من ان المشركين يجمعون فلولهم لينتقموا من المسلمين .. الطريق طويل يا عمي وفي العمر مجال باذن الله ...

وانقطعت أخبار حسان . فخرج سلمان يتحسس اخباره . في فترة كان المسلمـون في المدينـة يعيشـون في أحزان ويتجهـون الى الله ان يعيد اليهم أفراح « بدر » موقنين ان ما حدث لهم في « أحد » ليس

الا امتحانا لايمانهم .

وعلم سلمان ان الشاب قد جرح وان دماء زكية سالت على الرمل، ولاول مرة يحس بكمد لا يعرف له وصفا . في داخله اعتركت قوتان ، كان تحتهما أشبه بأسد حبيس ، يحس ان الزئير في الحبس شكوى . وانه لن يزأر الا وهو طليق السراح .

وفي هذه الليلة أوى مبكرا الى مرقده . وكأنه دفن جملة أعزاء . ذلك الذي ولى ظهره لوطنه وأهله وألقى نظرة غير دامعة على حجرة ابيه وامه وخرج آخذا بمدخل الطريق الى الله .

نام يتقلب ويتلو القرآن . فاذا بالباب يدق عليه . وكان الطارق حسان ومعه رجل آخر لم يسبق لسلمان ان رآه . وكان معه المبلغ الاخير الذي سيؤدى لابي كعب لكي يصبح سلمان حرا .. لا .. بل لكي يصبح الحر حرا . ولما سمع سلمان حديثهم . تقدم الى الحائط ونزع السيف من على الجدار وتقلده . ولما سألوه عما يفعل لم يجب فقد كان مدركا أن كل ما سيحدث انما هو في سبيل الله متشككا في نيات أبي كعب القرظي .

سار ثلاثتهم الى دار ابي كعب ، ودق سلمان الباب بقبضة يده القوية مدركا انه يطالب بـ « معنى الحياة » لذلك شدد القبضة وردد الطرقة . وجاء صوت مستكين ممطوط صالح للشكوى من امرأة في الداخل :

ــ من الطارق ؟ رد صوت حازم :

ــ انا سلمان . أريد أبا كعب حالا .. صمت قليل قالت بعده

المرأة :

ـ أو .. انه نائم .. في الصباح يا سلمان ..

ـ لا يا امرأة . فان معي ما سيجعله يقفز للقائي ماشيا على يديه لا على رجليه اذا ما أخبرته به ..

جاءتهم ضحكة وانية ..

ـ دراهم اذن ؟؟ هيه ؟؟

ـ نعم دراهم ..

ولم يلبث ابو كعب ان خرج اليهم في رداء نوم قديم وامامه امرأته تحمل مصباحا . فلما رأى السيف على عاتق سلمان ذعر لكنهم سارعوا وأبرزوا له المال .. فضحك :

ـ اعذروني .. ما رأيت سلمان يحمل سيفا قبل الليلة .. عهدي به يحمل .. آه .. (يريد الفأس) .

فقاطعه سلمان :

ـ عرفتني منذ اعوام زارعا .. وستعرفني في غد محاربا .. وسترى أي الرجلين ابرع من الآخر ..

قال أبو كعب بعد أن أخذ المال منهم :

ـ ليس يعنيني الآن منك الزارع ولا المحارب .. انصرف فأنت حر.

فهم حسان بلطمه لكن سلمان قال :

ـ الفأس له والسيف لله .. ولكم معنا موعد يا بني قريظة ..



« فدتك نفسي يا رسول الله .. ها انت ذا تراهم في عددهم الضخم في شمال المدينة .. قريش وحلفاؤها . يريدون ان يثأروا لقتلى بدر وأحد. وبنو قريظة في المدينة من حلفائهم . فدتك نفسي يا رسول الله . ان رأيا .. ان اقررته كان من سلاح الله والا فهو خاطرة انسان » .

هذا ما قاله سلمان للرسول وهو يتفقد المواقع حول المدينة ليصف جيش المسلمين في وجه الشرك . بعد ان دخلت النساء والاطفال الى القلاع وأقفلت الابواب . وكانت المدينة محاطة بالجبال الا مدخلا واحدا . وكان المسلمون في قلق . وأخذ المنافقون يبذرون بذور الفتنة .

أقبل سلمان على النبي يقول له :

« الفرس يحفرون الخنادق حول المدن لحمايتها من الهجوم » .

فزاد رجه الرسول استضاءة واشراقا ، ورأى المسلمون ذلك على النبي فأيقنوا ان الله أهدى اليهم النصر . وشمر رسول الله عن ساعديه الطاهرتين وأمسك بالفأس وبدأ حفر الخندق ، وتعالى التهليل والتكبير من كل جانب حتى وصل الصوت الى النساء في الحصون فحاولن ان يطللن ليعرفن الخبر . وأخذ سلمان فأسه وأخذ يحفر أرض المدينة . وهو يذكر تلك الايام التي كان يكسر فيها الاحجار لليهود . واخذ يهمهم بآيات من القرآن . قطعها عليه اول الامر صوت ندي غذي اعاد اليه ذكريات خالية . ابعد مدى من حوادث هذه الايام . تلك الحوادث الفذة التي تهز قلبه كأنما لتوقظه من ماذا .. من اليقظة ؟؟ حتى سبح سلمان في احساس لا يكاد يكون ارضيا . اذ هو بين المسلمين ويأخذ النبي بمشورته . ما اعظم هذا الوسام الذي حظي به .. وسام من نجوم السماء ..

لكن صوتا نديا في الشوق يأتي من احد الذين يحفرون . آه .. انه .. هو ذلك الوثني الذي كان يغني على نهر دجلة يوم لقيه في القافلة الخارجة من فارس .. سهيل العربي .. انه هو ولا شك .

واحس سلمان ان فيضا الهيا عظيما يكاد يرفعه كما يرفع البحر السفينة . وترك فأسه لحظة وسار اليه . وكان قد وصل مهاجرا من قبل ذلك ببضع ليال .. وناداه سلمان فرفع اليه وجهه ..

وثب كل منهما الى الآخر يعانقه ويبكي .. وقلب كل منهما يتذكر مقالة سلمان : « لن نلتقي الا اذا كان الهنا واحدا يا سهيل » .. وها هما اليوم قد التقيا على الاله الواحد .. ونبيهم يفرق في العمل ويحفر معهم حول المدينة . وبعد ذلك قال سلمان لصاحبه :

ــ هلم نحفر معا .. تعال الى جواري فأنت فأل طيب في حياتي : يا سهيل ..

ثم اقبل الليل . والسكون في جبهة المشركين يخيم خائفا وجلا وان كان العدد عظيما ــ عددهم الذي ربطته خيوط من المصالح بمثل نسج العنكبوت .

أقبل الليل .. وفتح الخندق فمه .. حول المدينة . مثل وحش أسود يرقد .. ان داسه أحد أهلكه .. ونظر اليه المسلمون وأيقنوا انه نصر من الله .. فلم يسع المهاجرون الا ان صاحوا ذاكرين الفضل لصاحب المشورة. لسلمان :

ــ سلمان منا ..

ولكن الانصار رأوا أنفسهم أحق بهذا ، فاذا كان المهاجرون قد

اعتبروه في الاسلام مهاجرا كان الانصار سكان المدينة قد اعتبروه مقيما. فهم مثل « خزرجي » أو « أوسي » .. هو « انصاري » فصاحوا ذاكرين الفضل :

ــ لا .. بل سلمان منا ..

وكان رسول الله يطوف بالمسلمين . ليرى ما تفعله القلوب المؤمنة بالارض الصلدة فسمع تهافتهم فأقبل حتى وقف في مكان وسط بينهم وقال بصوت هادىء : « سلمان من آل البيت » .

ولما سمع سلمان مقالة النبي أحس بعراقة نسبه . وحضرته صورة الدهقان ابيه وهي تدخل في ظلام لا نهاية له . لكنه شعر بنفس الشعور الذي داخله وهو يخطو الخطوات الاولى الى الرسول وهو في مجلسه بين أصحابه في قباء بعد الهجرة بيومين اثنين . شعر سلمان ان يديه اللتين ألهبت الفأس بشرتهما تمسك بأستار حريرية في قصر كسرى . هذه المرة شعرت يداه . وفي المرة السابقة شعرت قدماه القاصدتان الى النبي في مجلسه ــ بأنها تدوس على بساط كسرى .

وبعد قليل ارتفع في سماء المدينة حول الخندق لغط المسلمين وهم يعملون . وجاء حسان بن ثابت الانصاري فقال عدة ابيات من الشعر ألهب بها حماسة القلوب وعاد الى حيث يقف في حراسة القلاع التي بها نساء المسلمين وأطفالهم .

واستتب الظلام وهم يعملون . وفي هذه المرة وقف سلمان متعبا يتصبب العرق منه . كان هو وسهيل يضربان في صخرة لا تريد ان تنكسر. وكان لا بد من كسرها . واجتمع ساعدان فارسي وعربي تحت الراية لكسر الصخرة لكنها أبت عليهم . كانت في عناد قلب المشرك .. نظر اليها

سلمان تحت جنح الظلام وتبسم .. كان يرى انها ستتكسر حتما .. ووضع فأسه عليها ومشى يبحث عن الرسول . وعندما مثـل بين يديه أخبره بأمر الصخرة وهل يمكن توفيرا للوقت والجهد ان يـدور الحفر حولهـا ويتركوها في مكانها ؟..

وسار الرسول في صمت . ثم وقف امام الصخرة ونظر اليها . كانت على هيئة حية قصيرة مقوسة . غامضة لا يعرف أين رأسها وأين ذنبها . وقف النبي امامها برهة ودعا الله . ثم طلب معولا . فأتاه سلمان به . وأمر النبي اصحابه ان يبتعدوا عن مرمى الشظايا . وسمى الله وضرب الصخرة ضربة فجرت منها شرارا أضاء الليل حتى رأى المسلمون وبينهم سلمان نواحي المدينة كلها . وراع المسلمون أن سمعوا رسول الله يقول :

« الله اكبر .. أعطيت مفاتيح فارس . ولقد اضاء لي منها قصـور الحيرة ومدائن كسرى .. وان امتي ظاهرة عليها » .

وانكسرت الصخرة من الضربة الثالثة ..

وأطرق سلمان في خشوع وهو يقول في نفسـه : « صـدق الله ورسوله » . ورأى في ظل الاطراقة جيشا لجبا يمشي في المستقبل مـن حيث يقف هو والمسلمون الآن ـ متجها نحو الشمال الشرقي . الى حيث يعود سلمان الفارسي الى الارض التي فيها مهده .. مهـد من الحرير والديباج أنكره قلبه الذي ظل يضرب في الارض باحثا عن الحقيقة .

- ٧ -

ها هوذا السابع عشر للهجرة والدنيا تغيرت ..

قبض النبي الى الرفيق الاعلى والخلافة اليوم على يد عمر .

والمسلمون معسكرون الآن على الشاطىء الغربي لنهر دجلة والنهر في فيضانه يجري الخليج بسرعة تدوخ ..

كان سلمان الفارسي ورفيق سفره القديم وأخوه في الدين الجديد سهيل العربي بين الجنود .. ينظران الى النهر ويذكران يوم ركباه نحـو الشمال . يوم كادت السفينة توشك الغرق وركابها يبتهلون الى الله ...

نظر كل صديق الى صديقه نظرة حملت مجمل القصة ثم انصرف كل الى افكار اخرى ..

أطرق سلمان لانه تذكر حادثا لا ينساه . ذلك الذي وقع يـوم

الخندق ، يوم انبعثت الشرارة من الصخرة بيد النبي فبشر المسلمين بأرض فـــارس .

خيل الى سلمان ان ضوءها لا يزال .. ثابتا على الافق الشرقي مثـــل طلائع الشمس . وتحت وهجها السماوي تأخذ عيون المسلمين ايـــوان كسرى الابيض في « مدائن الايوان » على الشاطىء الآخر للنهر ..

وقهقه سهيل العربي فجأة والمعسكر في سكون فنظر اليه سلمـــان الفارسي وابتسم في صمت . لكنه سأله بعينيه عما اضحكه ، فقال سهيل:

ـ واحدة بواحدة .. خيلنا خافت في اللقاء الاول من منظر الفيلة فلما برقعنا ابلنا وجللناها ذعرت منها الفيلة .. وعلى كل فقد قطعنـــــا أحزمة سروج الفيلة فأسقطنا ركابها وضربناها بالنبال في آذانها .. خيل الله أقوى يا سلمان .

وعاد يضحك ، لكن سلمان لم يأبه له .. فعرته نوبة شديدة من القلق وسأله :

ـ ما بك يا صديقي ؟؟

ـ لا أستطيع ان أصف يا سهيل .. ماذا تظن انني قائل ؟ لقد أخجلني الله اذ لم يترك لي رجاء الا حققه . أريد أن أشعر دائما انني محتاج اليه . فباحتياجنا اليه سندخل قصور المترفين . وماذا أقول لك يا سهيل .. ان ابا ذر الغفاري خوفنا من هذه المباهج . لكن درة عمر تكسر باب كـــل باطل . اني أسأل نفسي يا سهيل الآن وانا انظر الى دجلة المتدفق الذي سنعبره حتما الى قصر كسرى : « هل انا عائد الى وطني أو هل انا قـــد تركت خلف ظهري وطني في المدينة ؟ » اني اشعر ان وطني خلفي . لقد

وطئت قدماي حافيتين الى الرسول في مجلسه فأحسست انهما تطآن ــ مقدما ــ بساط كسرى . تراني يا سهيل هل سأرى احدا من أهلي .. أهلي بحكم انهم نسلوني .. أخذت منهم اللون وليس اللون هو البناء كله .. ان محمدا هو الذي بناني .. ماذا اقول يا سهيل . لا شيء . وبحسبي ما قلت .. دعني أذهب لسعد بن ابي وقاص لأسأله ما ينتظر . فقد جاء الي منذ قليل من أخبرني ان الفرس يجلون بكل ما يملكون عن مدينة الايوان ..

وترك سلمان صديقه واتجه حيث ينزل سعد . وجعل سهيل يتذكر ما كان يفعله سلمان حين دخلوا المدائن الدنيا . كان يقف بحصانه في كل مفترق طرق شاهرا سيفه ويخطب بالفارسية فيلتف حوله الناس ليسمعوا سحر بيانه ..

« ليس غاية المسلمين ما في أيديكم بل غاية المسلمين ما في قلوبكم .. اننا نريد ان تخرجوا من ضيق الدنيا الى سعة الآخرة » .. « كنت ابن دهقان كسرى كفرت بالشرك وتركت أرضكم وخرجت أبحث عن الله فهداني محمد اليه .. وهأنذا قد عدت لا لأبحث عن ارض ابي وحظائره ورقيقه ، فقد ذقت ذل الرق . ولكنني عدت مع المسلمين .. ولا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » .

هذا ما كان يذكره سهيل العربي من بعض ما قاله سلمان الفارسي حين خاطب الفرس بلغتهم .. في الوقت الذي كان سلمان فيه عند سعد ..

وعاد سلمان بعد فترة وعلى وجهه علامات التأهب . حاجباه المقرونان بينهما تقطيبة فارس عريق . وشفتاه مضمومتان وصدره مفتوح .. ولم يكد سلمان يلقي بالخبر الى صاحبه حتى كانت همهمات وتهليل وتكبير

.. تسري في صفوف المسلمين .. وتقدم سعد بجواده الابيض . كان في لون ايوان كسرى . وكان ذنبه يهتز في خيلاء .. وان كان سعد يتململ على سرجه لان جسمه كان مملوءا بالخراريج بقية ما كان في القادسية ..

وزمجر نهر دجلة وتكاسحت أمواجه لكن سعداً أمر كل مجموعة من الفرسان ان تتضام وان تجعل الرماح بينها مثل الاربطة حتى تقوى المجموعة على مقاومة الموج .

سبحت الخيل مجموعات مجموعات في مئات من الفرســان وكان سهيل في مجموعة سلمان . وبين وقت وآخر كان سعد يهتف في مقدمتهم سائــلا :

ـ أهناك غريق ؟؟

فتأتيه أصوات فرحة : لا يابن ابي وقاص .. الا واحدا وانتشلناه.. فصاح سعد : من هو ؟؟ فأجابوه : سهم سقط في النهر من جعبة احــد الفرسان فلم ندعه يغرق .. فيرد ابن ابي وقاص : يا اتباع محمد .. انتم على حق . فان سهما لله لا يغرق.

وفي خلال العبور ، ارتفعت أصوات بآيات من القرآن ..

ونادى أحدهم بأعلى صوت عندما بدأ الشاطىء الشرقي في الدنو من المسلمين : « رباه ... اين انت يابن الخطاب لترى بعينك » ..

وتتابعت الخيول ووقفت تنفض الماء من على جلودها على الارض كما تفعل الطيور المبتلة . ونظر سلمان الى ما حوله .. تذكر ذلك المكان جيدا ، تذكر المدخل المشجر والحديقة ذات الازهار التي تطل عليها نوافذ

الايوان . ففي هذا المكان من الصبا الاول جاء مع ابيه الدهقان حاملا هدية الفلاحين الجبرية الى كسرى في أحد أعياده .. وها هوذا يتقدم مع المسلمين نحو المكان نفسه . غير ان الراية اختلفت ..

كانوا مقدرين ان تسبق اليهم فرسان المقاومة لكن سبق اليهم الصمت المخيم على المكان . وفر يزدجرد واتباعه حاملا أولاده وما استطاع حمله من ماله ..

ودق قلب سلمان . ها هم أولاء جنود المسلمين يدخلون الايوان ، القباب تردد صدى هتافهم ، والتماثيل النادرة كأنها تنظر بعيون مذهولة، وجوه سمراء .. وجنود شعث غبر ، زينهم عقيدتهم وطيبهم دعاؤهم ..

ولم يلبث المسلمون ان بهرت أبصارهم ، لكن سعدا تقدم منهم الى أحد الأبهاء ليصلي لله شكرا ويقرأ : « كم تركوا من جنات وعيون .. ».

ثم أقبل سلمان على ابن ابي وقاص وعانقه يقبله كأنما هي تحية للعرب في أرضهم الجديدة ..



قال سهيل العربي لصديقه سلمان :

« ماذا تريد يا سلمان بعد أن أصبحت واليا على المدائن . وبعد ان ولاك عليها عمر بن الخطاب وهو من هو حزما وقوة ونفاذ بصيرة .. هذا

في رأيي وسام جديد بعد الوسام السماوي الذي قلدك اياه رسول الله عليه السلام حين قال يوم الخندق : « سلمان منا آل البيت » .. هلم قل لي ماذا تريد بعد ذلك ؟ » .

فأطرق سلمان . وكان جالسا تحت ظل شجرة أمام أصغر بيت في المدائن وهو يجدل خوصا ليأكل من كد يده ، فهو يوزع راتبه على المحتاجين . أطرق ثم رفع رأسه وقال لسهيل :

هلم معي الى الضيعة القديمة .. ضيعة والدي في قرية « جي » الى حيث ولدت هناك يا سهيل .. تعال لترى موطن المجوس .. لترى أين داست قدماي وأنا طفل .. وفي الطريق سنتحدث ..

وركبا الى هناك . كل على حصان . ولم يكن معهما احد . فما كان والي المدائن الجديد امتدادا لنظام كسرى بل هو دين جديد . يخرج من الظلمات الى النور ..

وكان سلمان يقول لصديقه والجوادان متحاذيان كأنهما مشدودان في مركبة :

« هل تدري ماذا قال لي ابن ابي وقاص ؟.. ان الغنيمة الكبرى التي غنمها في هذه الفتوح ثوب واحد . هل تعرف ما حقيقته يا سهيل ؟.. انه ذلك الثوب الذي جرح وهو لابسه في غزوة بدر . فيه بقعة من دمه وخرج من نبلة مشرك سيقدمها بين يدي اعماله يوم لقاء الله . وقد اوصى ان يكفن فيه » .

هز سهيل رأسه وقطب حاجبيه كأنما يسأل نفسه ماذا فعل .. لكن سلمان استطرد :

« اما انا فقد حصلت يوم موقعة جلولاء على غنيمة نادرة . صرة بأكملها .. صرة مملوءة بالمسك .. سأذيبه بيدي في الماء ليكون حنوطي يوم ألقى الله .. فما أعظم هذه الغنائم .. » .

وسكت الصديقان . كان وقع حوافر ثمانيــة للجوادين يــدق على الطريق الصلب كدف يوقع لحنا مقدسا . ثم استتب الصمت لحظات قال بعدها سلمان :

« سهيل .. هل تعرف مما أخاف اليوم ؟؟ » فأجاب صاحبه :

« لا .. قل لي ماذا يخاف قلبك المؤمن ؟؟ » فقال .. « اخاف ان يمتد بي الاجل حتى أرى المسلمين وقد فتنهم متاع الدنيــا وزخرفها . في هذه الزخارف التي حولك يا سهيل لم يستطع أحد أن يرى الله . لكنها اليوم تحت ظل الاسلام الفتى القوي تتحدث عن الله لان فيها حقا لكــل مسلم . ولكن يا سهيل .. انها يوم يستأثر بها القوي دون الضعيــف والحاكم دون المحكوم فانها ستكف عن التحدث عن الله . ستعود زخرفا أخرس ذا لغة شيطانية وسيقول الناس مقالة الرسول : « رحم الله ابا ذر » .

آه يا سهيل .. ما أجمل احتياجنا الى الله ... وكل شيء يلهي ــ حتى ننسى احتياجنا الى الله ــ فهو قبيح لا يساوي شيئا .. فأهلا بالمكاره ما دامت هي الطريق اليه . ليتنا نرى الراعي يا سهيل .. ربما كان لا يزال على قيد الحياة ..

ــ من ذلك الراعي ؟

ــ من رعاة أبي الدهقان . رأيته يجلده يوما فأحسست وقع السوط على جلدي .. أخذت ثيابه بعد ذلك وهربت ودعوته بسيدي فكاد يجن .. سيكون مسلما ان كان حيا فهو بحاجة الى دين (السواسية) .. وربما وجدت عنده ثيابي القديمة كتذكار تاريخي ..

وتنهد سلمان .. وسبح في ذكريات لم يجرؤ على البوح بها فقد كانت صورة (بوران) اخته تطوف بخياله ..

***

« والآن هذه هي قريتي التي هربت منها » .

هتف سلمان بهذه العبارة وكأنه في حلم . وسار على قدميه وحده في هذه المرة تاركا سهيلا في مكان أمين سيلقاه فيه .. ذهب يجري نحو المزرعة فاذا برجل قصير مسن جالس عند باب الحظيرة ولم يكن فيها خنازير بل كان فيها أغنام . وعرفه سلمان من صوته حين سلم عليه .. ثم ذكره بنفسه . وقال له لقد جئت مع جنود المسلمين وانا واحد منهم . فاحتضنه الراعي باكيا وقاده نحو الحجرة القديمة التي لقيه فيها آخر مرة .. وجلس معه . يمسح على كتفيه وجنبيه بين لحظة واخرى كأنه لا يصدق لولا الامارات التي حكاها سلمان له في ليلة الفراق . ثم حكى له الراعي ما عمله ابوه في ملبس له (لسلمان) بعد سفره ليعلن للناس

مقتله خشية العار . وأخبره ان والده قد مات . وبوران تزوجت وانجبت وماتت .. فكفكف سلمان دمعه : « كنت أحبها .. واحب لها ان تدرك الاسلام .. » .

أما أمه فقد ماتت ايضا . والدار ملك اخوتـه .. ولا يزالون على المجوسية . واستطرد الراعي :

« اما انا فمسلم .. النور يدخل القلوب المخلصة كما تدخل أشعـة الشمس والقمر من النوافذ المفتوحة .. قبلني يا بني وستفوح مني اليوم رائحة غير رائحة الخنازير » .

واحتضنه وهو يبكي ..

وسار سلمان معه الى دارهم القديمة : ولما لقيه اخوته انكروه لكنه شفقة عليهم من ان يجحدوا ترك لهم الراعي ليعلمهم ثم يعـود اليهم ان كانوا مسلمين ..

وخرج .. توجه الى التل هناك .. حيث يقع بيت النـار القديم .. ووقف والتف حوله قوم مسلمون .. ووقف احدهم فأذن ..

طارت من على حائط معبد النار طيور كانت ساكنة فيه ، اتجهت الى السماء ولم تعد اليه أبدا .. عششت على قمة شجرة خضراء .. وفي هذه اللحظة عاد الراعي الى سلمان فأخبره ان دارهم في القرية اصبحت دار اسلام ، فتقدم اليها مطمئن القلب ..

وفي صبيحة اليوم التالي كان سلمان متجها الى المدائن الى حيث

يجلس من جديد لينسج الخوص .. وليأكل من عمل يده .. واخباره في المدينة تجعل ابن الخطاب يهز رأسه عجبا من سلوك هذا الباحث عن الحقيقة ...

القاهرة في نوفمبر ١٩٦٦ .

